تدبر وفهم كَلَامِ رَبِّي

جزء الأحقاف

د. جمعة بن خادم بن سليم العلوي

سلطنة عمان

3 ذي الحجة 1447 الموافق 20 مايو 2026

بسم الله الرحمن الرحيم

<u>الموضوع</u> ....**<u>الصفحة</u>**

سور الأحقاف............ 4

سورة محمد..................... 23

سورة الفتح. 37

سورة الحجرات.............. 56

سورة ق. 71

المراجع.. 91

سورة الأحقاف

تسمية السورة

(سورة الأحقاف): وهو الاسم الأشهر والأكثر تداولاً، سُميت بذلك لورود لفظ (الأحقاف) فيها (في قوله تعالى: (وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ). والأحقاف جمع "حِقْف"، وهو الرمل العظيم المُعوجّ والمُرتفع، وهو اسم للمنطقة التي كانت مسكناً لقوم عاد (قوم هود عليه السلام).

كما يطلق عليها أحيانا سورة (حم الأحقاف): وهو اسم اجتهادي، حيث تُنسب إلى الحواميم السبع (السور التي تبدأ بحروف "حم")، وهي آخر الحواميم في ترتيبها.

وهي سورة مكية باتفاق، ويوجد خلاف بين علماء العدد في عد آياتها، ومرد هذا الخلاف إلى موضع واحد فقط وهو الآية الأولى المفتتحة بـ "حم"، وذلك على النحو التالي: فمن عد (حم) آية منفصلة، كما هو الحال في العد الكوفي، عد آيات سورة الأحقاف 35 آية، ومن عدها مع قوله تعالى: (تنزيل لكتاب من الله العزيز الحكيم) آية واحدة كما هو الحال مع عدّ الباقين (البصري، والمدني، والشامي، والمكي)، كان عدد آيتها عنده 34 آية.

سبب النزول

لم يُكر لها سبب نزول خاص، بيد أنّ كل السور المكية – تتحدث عن العقيدة، وعن المكذبين الذين يكذبون بالوحي والرسالة وبالبعث والحساب والجزاء. ولكن لكل سورة جوها الخاص، وطريقة عرضها الخاصة.

فضائل الحواميم

ثبت عن النبي ﷺ أنه اتخذ كلمة "حم" شعاراً للمسلمين في بعض الغزوات (مثل غزوة بني المصطلق)، وقال" :إنكم تلقون عدوكم غداً، فليكن شعاركم: حم، لا ينصرون"

عَنِ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ، قَالَ: أَخْبَرَنِي مَنْ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنْ بُيِّتُّمْ فَلْيَكُنْ شِعَارُكُمْ حم لَا يُنْصَرُونَ»[1].

---

1 – أخرجه أبو داود (2597)، والحاكم (2512)، والبيهقي (13185) جميعا بلفظه، والترمذي (1682) باختلاف يسير، وقال الألباني عن إسناده: صحيح.

أي: إنْ بيَّتَكم العدوُّ فقَصَدكم بالقتلِ ليلًا على غِرَّةٍ، واختَلَطتُم معَه، "فَلْيكُن شِعارُكم (حم) لا يُنصَرونَ"، أي: لِيَكُنْ هذا شِعارًا لكُم تتَعارَفون به، ويَعرِفُ بَعضُكم بَعضًا به؛ بأن يَقول: "حم لا يُنصَرون"، والمعنى: بفَضلِ السُّورةِ المفتتحةِ بـ(حم) ومَنزلتِها لا يُنصَرون، وسيَكونُ ذلك حتمًا بانهِزامِ الأعداءِ، ولا يُنصَرون، أي: لا يُنصَرُ الكفَّارُ عليهم.

وفي الحديثِ: فضلُ سُوَرِ الحَواميمِ؛ حيث أشارَ أنَّها- لعِظَمِ شأنِها وشرَفِ منزلتِها عند الله تعالى- ممَّا يَستظهِرُ به المسلِمون على استنزالِ النَّصرِ عليهم والخِذلانِ على عدوِّهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

*(حم (1) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ (3) قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ۖ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (4) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ(5) وإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (6) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (7) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (8) قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (9) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (11) وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ(12))

هذه الافتتاحية المباركة من سورة الأحقاف تمثل نموذجاً فذاً لبلاغة القرآن الكريم في بناء المحاجة الإيمانية، وتفكيك العقلية الجاحدة بأسلوب يجمع بين جزالة اللفظ وعمق المعنى.

المدخل اللساني والبلاغي (براعة الاستهلال والتحشيد النفسي): تبدأ السورة بالحرفين المقطعين: (حم).

عند البقاعي في "نظم الدرر" وابن تيمية وابن القيم والعثيمين وغيرهم: الحروف المقطعة هي إشارة إلى ماهية هذا الإعجاز؛ فالقرآن مركب من جنس هذه الحروف التي تنطقون بها، لكنكم عاجزون عن الإتيان بمثله.

(تَنزِيلُ الْكِتَابِ): الجملة الاسمية هنا تفيد الثبوت والدوام. ولم يقل "نزّل الله الكتاب" (جملة فعلية تفيد التجدد)، بل قالها سبحانه اسمية ليرسخ في ذهن السامع حقيقة ثابتة لا تقبل التذبذب. وفي تنكير "تنزيل" ورفعها بالابتداء (أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذا تنزيل) تعظيم شأن هذا المُنَزَّل.

(مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ): اختيار هذين الاسمين تحديداً يخدم السياق؛ فالكتاب صادر من "العزيز" القادر على نصرة رسوله وعقاب المكذبين، ومن "الحكيم" الذي يضع آياته وأحكامه في غاية الإتقان.

القراءة النحوية والبيانية (جدلية الخلق والعدم): (مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى) يعني: يوم القيامة، وهو الأجل الذي تنتهي إليه السموات والأرض، وهو إشارة إلى فنائهما، (وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا) خُوّفُوا به في القرآن من البعث والحساب (مُعْرِضُونَ).

ككل السور المكية – تتحدث سورة الأحقاف عن العقيدة، وعن المكذبين الذين يكذبون بالوحي والرسالة والبعث والحساب والجزاء.

نحوياً وسياقياً: أسلوب قصر حقيقي باستخدام النفي والإيجاب (ما... إلاّ). يفيد حصر غاية الخلق في "الحق" و"الأجل المسمى".

الباء في (بالحق) باء المصاحبة أو الملابسة، أي: خلقناهما ملابسين للحق، وليست بديلة للّام (التعليلية). وتدل دلالة قطعية على تنزيه الله عن العبث، وأن خلقه للكون يحمل غاية ثابتة، ويهدف إلى إقامة العدل، والجزاء، والدلالة على وحدانيته، مما ينفي أي احتمال للباطل أو اللعب

ويفسره قوله تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) [ص:27].

وقيل للسببية، حيث وجه بعض النحاة الباء للسببية (بمعنى اللام)، أي: خلقنا ذلك لإيجاد الحق، ولأجل غاية الحق. ومع ذلك، فإن "المصاحبة" أعمق وأدق دلالة في بيان تلازم الحق مع الخلق منذ لحظة الإيجاد الأولى

وهذا القول الثاني هو قول الإمام الطبري حيث يرى أن الخلق كان لإقامة العدل والإنصاف بين الخلائق، وإظهار الحق في الخلق.

عند ابن القيم: "الحق" هنا ليس مجرد نقيض الباطل، بل هو الغاية الغائية والمنظومة الأخلاقية والكونية التي لا عبث فيها (العدل والتوحيد). أمّا "الأجل المسمى" فهو الإطار الزمني الدقيق الذي ينتهي عنده هذا العالم ليبدأ عالم الجزاء.

الالتفات البديع: يلتفت النص مباشرة لبيان المفارقة الصادمة: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ)؛ فالكون في وادي والذين كفروا في وادي – كما يقول المثل- الكون كله قائم على الحق والنظام، بينما الإنسان الكافر هو النشاز المُعرض عن هذا التناغم الكوني.

هنا يأتي الحوار العقلي والمحاجة المقاصدية: (قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ۖ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ، وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ، وإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ).

يتحول الأسلوب إلى التهكم والتبكيت العقلي؛ وهو ما يسميه ابن تيمية وابن القيم في كتبهما بـ "البراهين العقلية القرآنية":

(أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ): أمر تعجيزي وتحدٍّ صارخ يسد على المشرك منافذ المحاجة. فإما خلق مستقل في الأرض، أو مساهمة وشراكة في السماء، وحيث انتفى الأمران، بطلت الألوهية المدعاة.

(ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ): انتقال من الدليل العقلي (أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا) إلى الدليل النقلي/الأكاديمي (ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا) أيٍ من الكتب السابقة وبقايا العلم المأثور. ثم تنزل أكثر في طلب الدليل (أو أثارة من علم)، (أثارة) هي البقية من الشيء، لفتة لسانية عجيبة، تشير إلى أنهم لا يملكون حتى "فتات" أو بقايا علم حقيقي يدعم وثنيتهم.

الظل النفسي والسياقي: يقف سيد قطب في "الظلال" عند قوله تعالى: (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ):

"إنها لقطة تجسد البلادة الإنسانية في أقصى صورها؛ إنسان عاقل ينادي جماداً، أو شخصاً غافلاً لا يسمع ولا يعي، ويمتد هذا الفراغ والجهل إلى يوم القيامة".

وهذا قريب من قوله تعالى في سورة الرعد: (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ۚ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) [الرعد:14].

بينما يفصل محمد قطب في فقه النفس من خلال الآية التالية: (وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً)، حيث يبرز المفارقة النفسية؛ فالولاء الشديد والعبادة العاطفية التي قدمها المشركون لأوليائهم في الدنيا تنقلب في لحظة الحشر إلى عداوة وخصام متبادل، وهو قمة الخسران النفسي والوجودي.

*(وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ) يسمون القرآن سحرا،

*(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ) أي: حمد صلى الله عليه سلم من قبل نفسه، فقال الله عز وجل: (قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ) أي: لا تقدرون أن تردوا عني عذاب ربي على افترائي، فكيف أفتري على اله من أجلكم، (هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ) تخوضون فيه من التكذيب بالقرآن والقول بأنه سحر، (كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ) أنّ القرآن حق جاء من عنده، (وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) في تأخير العذاب عنكم، وقال الزجاج: هذا دعاء لهم إلى التوبة، معناه: إنّ الله غفور لمن تاب منكم، رحيم به.

*(قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ).

من المواضع التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم ما في معنى هذه الآية وساقه البغوي في هذا الموضع ما رواه خارجة بن زيد: أن أمَّ العلاءِ - امرأةٌ من الأنصارِ- قد بايعتْ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ - أخبرتْه أنهم اقتسموا المهاجرينَ قُرْعَةً يعني: فَطَارَ لنا عثمانُ بنُ مظعونٍ أنزلناه في أبياتِنا، فوجع وجَعَه الذي تُوفي فيه، فلما تُوفي وغُسِّلَ وكُفِّن في ثلاثٍ دخل رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، قالت: فقلتُ: رحمةُ اللهِ عليك أبا السائبِ، شهادتي عليك لقدْ أكرمَك اللهُ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: وما يَدريك أنَّ اللهَ أكرمَه، قلتُ: بأبي أنت يا رسولَ اللهِ فمنْ أكرمَه اللهُ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: أمَّا هو فوالله لقد جاءه اليقينُ، والله إني لأرجو له الخيرَ، والله ما أدري وأنا رسولُ اللهِ ماذا يفعلُ بي، فقالت: واللهِ إني لا أُزكي أحدًا بعدَه أبدًا[1].

البناء الأسلوبي والدفاع عن الوحي في قوله تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) – إلى قوله تعالى: (قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ):

(أَمْ) هنا هي "أم" المنقطعة التي تفيد الإضراب الانتقالي، السياق يضرب صفحاً عن حماقة شركهم لينتقل إلى حماقة أخرى وهي اتهام النبي بالافتراء.

1 - أخرجه البخاري (1241) واللفظ له، وأحمد (27457)، والنسائي في ((الكبرى)) (7587) باختلاف يسير، والبيهقي في السنن الكبرى (6711).

(بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ): لسانياً، "البدع" هو الشيء الأول الذي لم يسبق له نظير. المعنى: لست مخترعاً لخط جديد، بل أنا حلقة في سلسلة ممتدة من الأنبياء؛ فلماذا تستغربون رسالتي؟

(وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ): قمة التجريد والعبودية لله، والاعتراف البشري الكامل بنفي علم الغيب عن الذات المحمدية إلا ما يوحى إليه، وهو رد بليغ على من ينتظر من الرسول خوارق كونية شخصية.

*(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ، وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ، وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ)

(التناسب النحوي والسياقي المقارن): في هذه الآيات، يتجلى منهج ابن عاشور في "التنوير والتنوير" في اقتناص المناسبات التاريخية والبيانية:

قوله سبحانه: (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ): بلاغياً: هنا إيجاز حذف مذهل يعتمد على احتباك المقابلة. والتقدير: فآمن الشاهد ولم يستكبر، واستكبرتم أنتم ولم تؤمنوا.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أنَّ عَبدَ اللهِ بنَ سَلامٍ بَلَغَه مَقدَمُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المَدينةَ فأتاه يَسألُه عن أشياءَ، فقال: إنِّي سائِلُكَ عن ثَلاثٍ لا يَعلَمُهنَّ إلَّا نَبيٌّ، ما أوَّلُ أشراطِ السَّاعةِ؟ وما أوَّلُ طَعامٍ يَأكُلُه أهلُ الجَنَّةِ؟ وما بالُ الولَدِ يَنزِعُ إلى أبيه أو إلى أُمِّه؟ قال: أخبَرَني به جِبريلُ آنِفًا، قال ابنُ سَلامٍ: ذاكَ عَدوُّ اليَهودِ مِنَ المَلائِكةِ، قال: أمَّا أوَّلُ أشراطِ السَّاعةِ فنارٌ تَحشُرُهم مِنَ المَشرِقِ إلى المَغرِبِ، وأمَّا أوَّلُ طَعامٍ يَأكُلُه أهلُ الجَنَّةِ فزيادةُ كَبِدِ الحوتِ، وأمَّا الولَدُ فإذا سَبَقَ ماءُ الرَّجُلِ ماءَ المَرأةِ نَزَعَ الولَدَ، وإذا سَبَقَ ماءُ المَرأةِ ماءَ الرَّجُلِ نَزَعَتِ الولَدَ، قال: أشهَدُ أن لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وأنَّكَ رَسولُ اللهِ، قال: يا رَسولَ اللهِ، إنَّ اليَهودَ قَومٌ بُهتٌ فاسألْهم عَنِّي قَبلَ أن يَعلَموا بإسلامي، فجاءَتِ اليَهودُ فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أيُّ رَجُلٍ عبدُ اللهِ بنُ سَلامٍ فيكُم؟ قالوا: خَيرُنا وابنُ خَيرِنا، وأفضَلُنا وابنُ أفضَلِنا، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أرَأيتُم إن أسلَمَ عبدُ اللهِ بنُ سَلامٍ، قالوا: أعاذَه اللهُ مِن ذلك، فأعادَ عليهم، فقالوا: مِثلَ ذلك، فخَرَجَ إليهم عبدُ اللهِ فقال: أشهَدُ أن لا إلَهَ إلَّا اللهُ وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ، قالوا: شَرُّنا وابنُ شَرِّنا، وتَنَقَّصوه، قال: هذا كُنتُ أخافُ يا رَسولَ اللهِ[1].

1 - أخرجه البخاري (3938) وأحمد (12057)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (8197)، وابن حبان (7423) جميعهم بنحوه.

لسانياً: المقارنة بين "اليهودي" الذي يملك خلفية كتابية فآمن لما رأى الحق، وبين "المشرك" الجاهل الذي دفعه الكبر، تضع قريشاً في موقف عجز أخلاقي ومعرفي.

(لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ): رصد بديع لـ "الكبر الطبقي". فقد كان سادة قريش يرون ضعفاء المسلمين (كبلال وعمار وسلمان) أقل منهم رتبة، فظنوا أن الحق لا يمكن أن يصل إلى هؤلاء الضعفاء قبل الصناديد! وهو مقياس مادي مشوه دمره القرآن بعبارة: (وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ) وهذا ما يطلق عليه (التعلل باتهام الماضي لإنقاذ الكبرياء الحاضر).

مسك الختام المصدق لرسالة موسى: تُختتم هذه الفقرة بالربط بين الرسالات: (وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا).

(إِمَامًا وَرَحْمَةً): حالان من كتاب موسى، يوطئان للأذهان أن الكتب السماوية تأتي لتقود الناس (إماماً) وتشملهم باللطف (رحمة).

(مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا): مصدق: صفة لكتاب، "لساناً" تعرب حالاً مؤكدة أو منصوبة على التوسيع، أي إسقاط الخافض، أي أنها كانت مصدق للسان عربي، فتزع الخافض أي لام الجر، فنصبت، وقيل منصوب على التمييز، والتمييز يأتي لإزالة الإبهام، فلو قيل كتاب مصدق، لقيم مصدق ماذا، فجاء التمييز لسانا عربيا، وقيل جاءت الكلمة منصوبة على الحال من الضمير المستتر في اسم الفاعل (مصدق)، أي مصدة حال كونه لسانا، عربيا : نعت لسانا.

وفي ذكر القيد اللغوي (عربياً) غاية الحجة على قريش؛ فالكتاب يصدق التوراة السابقة، ولكنه نزل بلغتكم وبيانكم وفصاحتكم التي تفاخرون بها الأمم، فانتفت عنكم أعذار العجمة والجهل، وتحقق الهدف المقاصدي النهائي: (لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ).

الخلاصة المقاصدية: تتحرك الآيات في مدارات متداخلة: تثبيت مصدرية الوحي: البرهنة بالكون المشهود ثمّ نسف أوهام الشرك عقلياً ونفسياً ثم دحض الشبهات الشخصية حول الرسول ثمّ إلزام الحجة بمقارنة تاريخية وتشريعية مع كتاب موسى؛ ليخرج السامع من هذه المنظومة البيانية إما منذَراً طاغياً أو محسناً مستبشراً.

*(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (13) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(14) وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي

أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (16) وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (19) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ(20))

ينتقل السياق في هذا المقطع من سورة الأحقاف انتقالاً باهراً؛ فبعد أن أحكمت الآيات السابقة طوق المحاجة العقلية والنظر الكوني، تحولت هنا إلى التطبيق البشري والنموذج الواقعي. إنها تضع المرء أمام خطين وعالمين ومصيرين، متخذة من "الأسرة" برباطها الوثيق (الوالدين والأبناء) ميزاناً تنعكس عليه حقيقة الاستقامة أو الجحود.

التناسب السياقي والمعماري للنص: عند البقاعي في (نظم الدرر): لما ختمت الآيات السابقة بذكر المحسنين والظالمين في قوله: (لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ)، افتتح هذا المقطع بتفصيل صفات هؤلاء المحسنين ومآلهم (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون)، قلت: وفيه تعريض بالظالمين الجاحدين، ثم ثنّى بنموذج للظالمين الجاحدين.

عند ابن تيمية: الاستقامة هي ِعظَمُ الأمر كُله، وهي التلازم بين عقيدة التوحيد والعمل بمقتضاها. التعبير بـ (ثُمَّ) هنا ليس للتراخي الزمني الفوري، بل هو للتراخي الرتبي وعلو شأن الاستقامة؛ فالنطق بالتوحيد سهل، لكن الثبات عليه ومقاومة العوارض والصوارف والشروع في رحلة التزود من العلم والترقي في الاستقامة عبر الزمن هو الشأن العظيم، ولذلك جاءت الاستقامة معطوفة بـ "ثم".

الهندسة النحوية واللطائف اللسانية في جزاء الاستقامة: (فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ).

نحوياً وبلسان العرب: نُفي الخوف بنفي الجنس (فلا خوفَ بالفتح) وهي قراءة يعقوب الحضرمي من القراء العشرة، أو (لا النافية للمبتدأ ورفع خوف) وهي قراءة الباقين، وجاء الحزن منفياً بالجملة الاسمية المصدرة بضمير المنفصل (ولا هم يحزنون).

النكتة البلاغية (ابن عاشور): نفى الخوف عن المستقبل ونفى الحزن عن الماضي. وتقديم الضمير (هم) في الجملة الثانية يُفيد الاختصاص والتمكين؛ أي: قد يحزن الناس كلهم من حولهم في عرصات القيامة، أما هم فمعزولون عن جنس الحزن تماماً.

لفتات الفطرة وحساب الأمومة: (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا)

بلاغة التعدية والحذف النحوي: (بوالديه إحساناً)؛ إحساناً مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره: "أن يحسن إحساناً"، أو مفعول به ثانٍ بتضمين "وصينا" معنى "ألزمنا". هذا الإيجاز يشحن الآية بقوة تكليفية حاسمة.

وجاء بعض تفصيل لهذا الإحسان في سورة الإسراء في قوله تعالى: (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) [الإسراء:23].

الظلال النفسية: يلتفت النص التفاتة رحيمة مشحونة بـ "عاطفة الوجود"، فيخص الأم بالذكر والتحليل النفسي والجسدي؛ لأن الأب يشترك في النتيجة، لكن الأم تنفرد بـ (كُرْهًا) فوق (كُرْهٍ). الكره هنا (بالضم والفتح) هو المشقة والجهد الاستثنائي الذي يهد الكيان البشري، ومع ذلك تصاحبه محبة غامرة.

مسألة فقهية: الحساب اللساني والرياضي (ابن قيم الجوزية): تحديد المدة بـ (ثلاثون شهراً) مع آية البقرة (وفصاله في عامين) (24 شهراً) استنبط منه الصحابة (وقيل: علي بن أبي طالب) رضي الله عنهم: أن أقل مدة للحمل هي ستة أشهر. القرآن هنا يستعمل دقة لسانية وتشريعية تبهر العقول لتأكيد ثقل الصنيع الذي قدمته الأم.

فقه الأربعين والدعاء المحوري: (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي...)

لسانياً وسياقياً: بلغ أشده (كمال قوته الجسدية والعقلية)، ثم حدد المحطة الحاسمة (أربعين سنة) وهي سن الاستواء والنضج التام، وسن بعثة الأنبياء.

فقه النفس: عند الأربعين ينتهي جموح الشباب ويبدأ التفكر الحصيف في المآل. ينقلب الإنسان المحسن هنا من العيش لنفسه إلى التطلع للماضي والمستقبل:

ينظر للماضي فيشكر: (أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي)، و ينظر للمستقبل فيؤمّن ذريته: (وأصلح لي في ذريتي).

دقة التعبير بـ (أَوْزِعْنِي): كلمة مأخوذة من "الوازع" وهو الكافع الداخلي، كأنه يطلب من الله: "ربّ اجمع جوارحي وقلبي واكففني واجعلني مجيَّشاً ومسوقاً بالكلية لشكرك"، وهو أبلغ من مجرد قول "ألهمني".

الصيغة النحوية لـ (وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي): دخول حرف الجر "في" هنا يفيد الظرفية والاستيعاب؛ أي: اجعل الصلاح سارياً ومتمكناً في داخل ذريتي وفي كل أفرادها، لا مجرد صلاح ظاهري عابر.

مشهد المقابلة والتهكم العقلي: في المقابل، يعرض السياق النموذج النقيض، وهو نموذج "الابن العاق العقلاني الزائف":

*(وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي)، بديع التنافر والتباعد البلاغي: الأبوان يمثلان قمة الشفقة والاستغاثة بالله لأجل ولدهما (وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ)، والابن يمثل قمة البلادة والصلف الكبر المادي (مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ).

ابن عاشور والنظم النفسي: استخدام لفظة (أُفٍّ) (وهي صوت التضجر والتحقير) في مواجهة من بذلا له الدم والجهد (ثلاثين شهراً) يوضح انحراف الفطرة. والابن يحتج بـ "الواقع المشهود" (وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي) أي: ماتت القرون ولم يرجع أحد، ظناً منه أن هذا عمق عقلي، بينما هو في ميزان القرآن سطحية معرفية وغباء وجودي؛ لأن البعث ليس عوداً للدنيا بل هو انتقال للآخرة.

قانون العدالة المطلقة ومصير المستكبرين: (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

لطيفة لسانية: عبر بالدرجات (ولكل درجات) ولم يذكر "الدركات" (المعهودة للنار)؛ تغلباً لجانب المراتب، أو لأن النار -كالجملة- منازل ينزل بعضها أسفل من بعض، وسماها درجات للمقابلة اللفظية المشاكلة.

*(وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا)

التبكيت والحرمان البلاغي: أصل الكلام النحوي: "يقال لهم: أذهبتم طيباتكم"، فـحُذف القول للمفاجأة، كأن النار تنطق بذاتها أو يواجهون بالتقريع دون مقدمات.

عند ابن تيمية وابن القيم في (الزهد والرقائق): هذه الآية تهز الوجدان الإنساني؛ فالاستغراق الشديد في الملاذ الدنيوية واستفراغ الشهوات مع الغفلة عن المنعم، يستهلك رصيد الإنسان في الآخرة. ولذلك كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستحضر هذه الآية ويقول: "لو شئت لبررت بآدية... ولكني أستبقي طيباتي"[1].

التعليل السببي بالنحو والبلاغة: (فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ... وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ): الباء هنا سببية.

جاء العقاب من جنس العمل؛ فلما استكبروا بطلب العلو الزائف في الأرض بغير الحق، عوقبوا بـ "الهون" (وهو الهوان الشديد والمذلة التي تكسر الاستكبار).

---

1 - وانظر الزهد لأبي داود (69).

المقصد الكلي والمآل: يتحرك هذا النص في مسار تربوي نفسي وتشريعي حاد؛ ليعلم الإنسان أن العقيدة ليست فكراً مجرداً، بل هي "بر بالوالدين" عند الطفولة، و"شكر وإنابة وصلاح ذرية" عند الرجولة والكهولة، وأن الجحود والتمرد على الفطرة الأسرية والربانية لا يثمر إلاّ التبدد والخسران في عذاب الهون.

*(۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (23) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (26) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ(28))

ينتقل بنا السياق في هذا المقطع الانتقالة الكبرى التي سُميت السورة باسمها: (بِالْأَحْقَافِ). فبعد أن قرر الله الحجج العقلية والنظر الكوني في المقطع الأول، وضبط ميزان الفطرة والعمل البشري في المقطع الثاني، يأتي هذا المقطع ليقدم التجسيد التاريخي المشهود؛ إنه عرض لمصرع عاد (قوم هود)، ليكون هذا المشهد التاريخي الحي بمثابة الصاعقة النذير للمستكبرين.

براعة الوصل السياقي والتناسب الهيكلي: عند البقاعي في (نظم الدرر): جاء التوجيه الإلهي للنبي صلى الله عليه وسلم: (وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ) ليربط الحاضر بالماضي؛ فكأن قريشاً التي عاندت واستكبرت وقالت: {لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ}، تسير حذو القذّة بالقذّة خلف سلفها في الاستكبار (عاد)، فجاءت قصتهم مرآة لمصير قريش المحتوم إن لم تؤمن.

النكتة اللسانية في (أَخَا عَادٍ): لم يقل "واذكر هوداً"، بل قال (أَخَا عَادٍ). وفي هذا التعبير رقة بلاغية تقابلها غلظة من القوم؛ فهو أخوهم في النسب والوطن والرحم، ليس أجنبياً عنهم، ولا غيبياً يجهلون صدقه، بل هو حريص عليهم حرص الأخ على إخوته، مما يجعل تكذيبهم له أقبح وأعظم جرماً.

(وقد خلت النذر مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ): تصوير إحاطي لسانياً وبلاغياً؛ فالنذر جاءت متواترة ومحيطة بهم من كل صوب وزمان، ولم تكن دعوة هود بدعاً ولا معزولة، بل سُبقت ولُحقت بالبينات.

الهندسة النحوية والتحليل اللساني للمحاجة: (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا)

لسانياً: كلمة (لِتَأْفِكَنَا) من الأَفْك، وهو الصرف والتحويل بقوة أو بقلب الحقائق. هم يرون دعوته للتوحيد "قلباً لمنظومتهم" وتشوهاً، وهذا من انتكاس المفاهيم الإنسانية عند غياب التوحيد.

عند ابن تيمية: عاد أظهرت "الصلف العقلي" ذاته الذي أظهرته قريش؛ فقد طالبوا بتعجيل العذاب استهزاءً وتحدياً (فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا)، فرد عليهم هود بالتجريد المطلق للعبودية: (إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ)، وفي حصر العلم بـ (إِنَّمَا) تسليم وتبرؤ من التدخل في مشيئة الله وزمن العقاب، وتأكيد على وظيفته المجردة: (وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ).

وهو نفس المنطق الذي أمر الله به نبيه محمد صلى الله عليه وسلم في أول السورة: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ).

الرصد النفسي: الختام بقوله: (وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)؛ حوّل الجهل من وصف عارض إلى صفة ملازمة ومتغلغلة فيهم تنضح بها تصرفاتهم ومواقفهم، فالجملة الفعلية تفيد تجدد جهلهم واستمراره.

الحركة المشهدية المفزعة: يقدم القرآن في الآيتين (24-25) مشهداً من أروع مشاهد التصوير الفني الإعجازي، يقف عنده سيد قطب في "الظلال" مبهوراً:

(فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا) المفاجأة النفسية: يتحرك المشهد من الفرح والاستبشار البشري برؤية السحاب الأفقية (العارض) المقِبلة على الأودية الجافة، حيث ظنوه الغيث والخصب: (هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا).

فيجيء الإضراب الصاعق: يأتي التعقيب الإلهي السريع ليحطم الوهم: (بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ). كلمة (بَلْ) هنا هي للإبطال والرد الردعي. وكلمة (رِيحٌ) جاءت منكّرة للتهويل والتفخيم، ريح خارجة عن المألوف البشري.

حركة التدمير اللغوية: {تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا}؛ تدمير ممتد وشامل لكل مظاهر القوة المادية التي تباهوا بها.

السكون والمشهد الصامت: (فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ)؛ نحوياً: قرأ عامة قراء المدينة (ومنهم نافع) والبصرة وابن كثير وآخرون (لا تُرَى إلا مساكنُهم) بالتاء والرفع، وقرأ عاصم وآخرون (لا يُرَى إلا مساكنَهم) بالياء والنصب على المفعولية والفاعل مستتر تقديره (أحد).

بلاغياً: هذا الانقلاب المفاجئ من الحركة والضجيج والاستكبار، إلى السكون التام والمقابر الصامتة والبيوت الخاوية، يرسخ الخوف من بأس الله، ويعلن انتهاء الأثر البشري الجاحد في ثوانٍ معدودة.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: ما هبَّتْ ريحٌ قطُّ إلا جثَا النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على ركبتيه وقال: [اللهمَّ] اجعلَها رحمةً ولا تجعلْها عذابًا اللهمَّ اجعلْها [رياحًا] ولا تجعلها رِيحًا قال ابنُ عباسٍ: في كتابِ اللهِ (أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا) و(أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ)، وقال تعالى: (وَأَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَوَاقِحَ) و(أَرْسَلْنَا الرِّياحَ مُبَشِّرَاتٍ) وفي بعضِ النسخ (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ) [1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: نُصِرتُ بالصَّبا، وأُهلِكَت عادٌ بالدَّبور[2].

أي أنّ اللهُ سُبحانه يُؤيِّدُ أَنبياءَه ورُسلَه بما يُريدُ، ويَنصُرُهم بما يَشاءُ، وقدْ خصَّ بَعضَ الأنبياءِ بمُعجِزاتٍ حِسِّيَّةٍ تَظهَرُ لهِدايةِ أقوامِهم، وإثباتِ نُبوَّتِهم ورِسالتِهم، وفي هذا الحديثِ يُبَيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه نُصِرَ «بالصَّبا»، وهي الرِّيحُ الَّتي تَهُبُّ مِن المَشرقِ، وقِصَّةُ الحديثِ أنَّ اللهَ تعالَى أرسَلَ رِيحًا باردةً في لَيلةٍ شاتيةٍ يومَ الخَندَقِ على الأحزابِ الذين تَجمَّعوا لِمُحارَبةِ المسلِمينَ، فقَلَعَتْ خِيامَ الكافِرينَ، وأطْفَأَتْ نِيرانَهم، وقَلَبَت قُدورَهم، وكان ذلك مِن أسبابِ رُجوعِهم وانهزامِهِم، وكان ذلك مُعجِزةً لرَسولِ اللهِ، وفضْلًا مِن اللهِ تعالَى على المسلمينَ.
ثُمَّ قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «وأُهْلِكَت عَادٌ بِالدَّبورِ»، وهي رِيحٌ تَهُبُّ مِن الغَربِ، سلَّطها اللهُ على قَومِ هُودٍ سَبعَ لَيالٍ وثَمانِيةَ أيَّامٍ حُسومًا -أي: مُتتابعةً- فأَهلَكَتْهم وقَضَت علَيهم.

وقد قيل: إنَّ الصَّبا: هي التي تَجِيءُ مِن خلْفِ ظَهْرِك إذا استَقبَلْتَ القِبلةَ، والدَّبورُ: الرِّيحُ التي تَجِيءُ مِن قِبَلِ وَجْهِك إذا استَقبلْتَ القِبلةَ.
وهذا الحديثُ ممَّا يدُلُّ على أنَّ الرِّيحَ تَأتي تارةً بالرَّحمةِ، وتارةً بالعذابِ، فلْيَحذَرِ الناسُ ولْيُقدِّموا الطاعاتِ، ولا يَغتَرُّوا بعَلاماتِ اللهِ الكَونيَّةِ؛ فقد يكونُ في إحداها عَذابٌ.
وفي الحديثِ: أنَّ بَعضَ الرِّياحِ نَصْرٌ ورَحمةٌ؛ كالصَّبا، وبَعضَها عَذابٌ؛ كالدَّبورِ.
وفيه: بَيانُ تَفضيلِ المخلوقاتِ بَعضِها على بَعضٍ وتَمايُزِها، مِثلُ هَواءِ الرَّحمةِ وهَواءِ العَذابِ.

---

1 - أخرجه أبو يعلى (2456)، والطبراني (213/11) (11533) مختصراً، والبيهقي في ((معرفة السنن والآثار)) (7246) واللفظ له، قال في الدرر السنية: حسن مشهور.
2 - أخرجه البخاري (1035)، ومسلم(900) .

وفيه: مَشروعيَّةُ إخبارِ المرْءِ عن نفْسِه بما خَصَّه اللهُ به على جِهةِ التَّحدُّثِ بنِعمةِ اللهِ، والاعتِرافِ بها، والشُّكرِ له، لا على سَبيلِ الفخْرِ. وفيه: الإخبارُ عن الأُمَمِ الماضيةِ وإهْلاكِها، والاتِّعاظُ بها.

القياس والمقارنة الجدلية مع قريش: في الآية (26)، يوجه القرآن ضربة قاصمة لعقلية الاستعلاء القرشية، ويفكك مفهوم "التمكين المادي":

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ)، نحوياً ولسانياً: "إنْ" هنا نافية؛ أي: ولقد مكنّا عاداً في الذي لم نمكنكم فيه يا أهل مكة (من بسطة الأجسام، وناطحات السحاب الإرمية، والقوة الحربية).

فقه النفس والحضارة: يقرر الله سبحانه أن وسائل الإدراك البشري: (سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً) (وقدم السمع والبصر لتعلقهما بالمحسوسات، وختم بالأفئدة وهي أدوات الوعي والعقل)، هذه الأدوات المتقدمة لا قيمة لها إن انفصلت عن الإيمان بالمنعم.

عقم الأدوات بلا هداية: (فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ)؛ تكرار "لا" النافية ثلاث مرات يعزل كل حاسة على حدة لبيان عجزها المنفرد عن دفع العذاب وعن هداية صاحبها، والسبب: (إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ)، فالجحود هنا علة التعطيل المعرفي.

*(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ، فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ).

البلاغة التهكمية والمقاصد الكلية للخسران: تختتم هذه الوجبة التاريخية بتهكم بليغ بالآلهة المدعاة:

(فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ)، نحوياً وسياقياً: (فَلَوْلَا) هنا حرف تحضيض وتوبيخ؛ يواجههم ويطالبهم القرآن مستهزئاً: أين تلك الشفعاء والآلهة التي تقربوا إليها لتدفع عنهم؟

(قُرْبَانًا آلِهَةً): مفعولان لاتخذوا، أو "قرباناً" حال؛ أي اتخذوهم متقرَباً بهم.

البلاغة في (بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ): ضلوا هنا بمعنى ضاعوا وغابوا وتلاشوا في اللحظة الحرجة. هذا التلاشي والضياع يعكس تفاهة العقيدة الوثنية؛ فالإنسان يبحث في لحظة الخطر عن إله يحميه، بينما آلهة المشركين تحتاج من يبحث عنها!

(وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ): (ذَٰلِكَ) اسم إشارة للبعيد والتحقير؛ أي ذلك المشهد البائس من التلاشي والضياع هو حقيقة كذبهم وافترائهم الطويل الذي عاشوا يخدعون به أنفسهم.

*(بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) تمثل هذه الآية ذروة المشهد المشهدي والحركي في تصوير خيبة المشركين، فبعد أن اتخذوا آلهة من دون الله ليقربوهم زلفى وينصروهم، إذا بهذه الآية تلخص مشهد القيامة في لقطة مذهلة: اختفاء كامل، وضلال مطلق، وتلاشٍ للأوهام.

اللمسة اللسانية والمعجمية: حقيقة "الضلال" و"الإفك" و"الافتراء"، لتذوق المشهد، لا بد من العودة لجذور الكلمات كما يحللها الطاهر بن عاشور وابن تيمية:

ضَلُّوا عَنْهُمْ: الضلال في أصله اللغوي هو الضياع والتوهان في الطريق، والغيبوبة عن الحس. عندما تقول الآية (ضلوا عنهم) أي: ضاعوا عنهم فلم يجدوهم.

في هذا تهكم صارخ؛ فالإله المفترض يُطلب ليَهدي ويُنقذ، فإذا به هو نفسه "ضال وتائه" لا يجد عابده، والعابد لا يجده!

الإفْك: هو قلب الحقائق وصرف الشيء عن وجهه الصحيح. الكذب المعتاد قد يكون فيه شبهة، أما الإفك فهو الكذب الفاحش الذي يقلب المنظومة العقلية كاملة (جعل العاجز إلهاً).

يَفْتَرُونَ: الافتراء هو الاختلاق والافتِعال عن عمد وتدبير (صناعة الوهم وزخرفته).

البنية النحوية والسياقية: هندسة الخيبة: السياق هنا سياق محاكمة عقلية ومشهدية تتبع الآية السابقة: (فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً)، ثم يأتي الجواب الصاعق بـ "بل":

إضراب الاستدراك بـ (بَلْ): يفيد إبطال ما قبله (النصر) والترقي في إثبات العكس. لم يكتفِ السياق بنفي النصر عنهم، بل أضرب صاعداً ليقول: "ليسوا فقط لم ينصروهم، بل إنهم غابوا واختفوا تماماً!".

تعدية الفعل بـ (عَنْ): (ضَلُّوا عَنْهُمْ). في المحاورة النحوية، "عن" تفيد المجاوزة والبعد. هذا التضمين النحوي يفيد معنى التلاشي؛ أي غابوا عن رادار رؤيتهم، كما نعبر في عصرنا، فيصدق عليهم قول الله تعالى: (وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ) [البقرة:166]، أي: انقطعت جميع وسائل النجاة، والروابط، والحيل التي كان يعتمد عليها الإنسان في الدنيا، فصاروا في تيه يبحثون عن آلهتهم فلا يجدون لها أثراً.

الإشارة بـ (ذَلِكَ): في قوله (وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ)، اسم الإشارة يفيد تعظيم وتقبيح المشهد. أي: ذلك المشهد المخزي من التيه والاختفاء هو النتيجة الحتمية والمجسدة لكذبهم في الدنيا.

صيغة الاستمرار (مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ): استخدام الفعل المضارع بعد "كانوا" يدل على أن الافتراء كان ديدناً مستمراً، ومصنعاً لا يتوقف في الدنيا من توليد الأكاذيب، فلما جاءت الحقيقة انهار المصنع وتبدد الإنتاج.

الصورة الأدبية والبلاغية: تجسيد وتشخيص الوهم (التشخيص والتمثيل): هنا نلتقي بظلال الفكر الجمالي عند سيد قطب في "التصوير الفني في القرآن"، وملامح الفقه البلاغي عند البقاعي في "نظم الدرر":

تجسيد المعنوي بالمادي: الإفك والافتراء أفكار ذهنية معنوية (كذب المشركين). القرآن هنا لم يقل "وتبين كذبهم"، بل جسّد الكذب في صورة مشهد حركي. جعل "الإفك" هو عينه هذا الغياب والضياع. كأن الأوثان والآلهة المزيفة كانت مجرد هولوغرام أو سحابة من الدخان (إفك متمثل)، فلما حصحص الحق تبخر الدخان فـ"ضلوا عنهم".

المقصد الكلي وعبرة السياق: لقد ساق القرآن قصة الأحقاف وعاد هنا لتفكيك الحصانة الجغرافية والمادية لقريش؛ إن الله يقول لأهل مكة ومن شابههم: إن جبالكم وأوديتكم وحصونكم ومكانتكم التجارية ليست بأقوى من عاد، وإن الآيات والنذر قد صُرّفت وحاصرتكم تاريخياً وبصرياً وبكل لسان: (وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)، فالسعيد من اتعظ بغيره، والشقي من صار عبرة للمعتبرين.

*(إِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (29) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (30) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (31) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (32) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (33) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (34) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ(35))

يصل السياق القرآني في هذا المقطع إلى خاتمة سورة الأحقاف وفذلكتها (خلاصتها) المقاصدية الكبرى. فبعد أن عُرِضَ مآل الإنس المستكبرين (قوم عاد) الذين صمّوا آذانهم عن الهدى، يلتفت النص التفاتة مذهلة في المقابلة والبديع؛ ليعرض مشهداً كونياً خفياً لـ "عالم الجن" وهو ينقاد خاشعاً مستمعاً للقرآن. إنها صدمة توبيخية مبطنة وتعريض بكفار مكة وغيرهم من المستكبرين: إذا كان الجن -على ما فيهم من

تمرد بطبيعتهم الخَلْقية- قد خضعوا لبيان هذا الكتاب من سماع واحد، فما بالكم وأنتم أهل الفصاحة واللسان تعشقون العناد؟!

التناسب السياقي وبراعة النظم: عند البقاعي في (نظم الدرر): الاتصال هنا في غاية الإحكام؛ ففي الآيات السابقة كذبت قريش وكذبت عاد، وكلاهما من البشر. فكأن النفس البشرية قد يداخلها اليأس من تقبل الهداية، فيأتي العطف الإلهي بـ (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ) (والواو عاطفة على مقدر، أو عاملها فعل محذوف تقديره: واذكر إذ صرفنا). هذا "الصرف" هو تدبير رباني محض، سِيق فيه نَفَر الجن ليكونوا جنداً للدعوة حين تخلى عنها الأقربون.

الدقة اللسانية في (صَرَفْنَا): الفعل "صَرَفَ" يتضمن معنى التوجيه والتحويل بعناية ولطف، كأنهم كانوا مسوقين بوادٍ آخر فجذبهم الله إلى الوادي الذي يتلو فيه النبي صلى الله عليه وسلم القرآن بـ "نخلة". وفي تنكير (نَفَرًا) (وهم من الثلاثة إلى العشرة) دلالة على البركة؛ فقليلٌ تؤثر فيهم الهداية خيرٌ من أمم مستكبرة.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: إنَّ قُلوبَ بَني آدَمَ كُلَّها بينَ إصبَعَينِ مِن أصابِعِ الرَّحمَنِ، كَقَلبٍ واحِدٍ، يُصَرِّفُه حَيثُ يَشاءُ، ثُمَّ قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: اللَّهمَّ مُصَرِّفَ القُلوبِ، صَرِّفْ قُلوبَنا على طاعَتِكَ[1].

حركة المشهد وعلم نفس الجن: يرسم القرآن مشهداً حركياً نفسياً متدفقاً، يقسمه سيد قطب إلى محطات زمنية متلاحقة عبر أداة التعقيب "فَلَمَّا":

المحطة الأولى (الإنصات والمفاجأة): (فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا)؛ كلمة "أنصتوا" تحمل حزماً أدبياً وهيبة استولت على جوارحهم بمجرد ملامسة التلاوة لأسماعهم. والإنصات أعلى من السماع، فهو سماع بتفكر وترك للمشاغل.

المحطة الثانية (انقلاب الهوية): (فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ)؛ بلاغياً ونحوياً: بُني الفعل (قُضِيَ) لما لم يسم فاعله (لم يُسمَّ فاعله) تعظيماً للقرآن؛ فالشأن للمقضيّ لا للقارئ.

سياقياً: لم ينتظروا طويلاً، ولم يذهبوا ليمتروا أو يترددوا، بل تحولوا فوراً من خانة "المستمعين" إلى خانة "المبلغين المنذرين". وفي استخدام لفظة (وَلَّوْا) سرعة الحركة والاندفاع بدافع الخوف الإيجابي والحرص على قومهم.

1 - أخرجه مسلم (2654) من أفراد مسلم على البخاري.

فقه المقارنة الأكاديمية واللسانية في وعي الجن: حين رجع الجن إلى قومهم، استخدموا لغة حِجاجية بارعة تدل على وعي لاهوتي دقيق رصده ابن تيمية في رسائله:

(قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) النكتة اللسانية التاريخية: لماذا قالوا "من بعد موسى" ولم يقولوا "من بعد عيسى"؟

عند ابن عاشور: لأن كتاب موسى (التوراة) هو كتاب التشريع والأحكام الأكبر، بينما الإنجيل جاء متمماً ومرققاً، والجن يبحثون عن أصول الشرائع والأحكام التي تضبط عالمهم. أو لأن هؤلاء النفر كانوا على اليهودية فاستحضروا مرجعيتهم المعرفية.

قلت: أيضا الإنجيل لم يكن اشتهر يومئذ، فقد جمع وأضيف متأخرا، ولذا قال ورقة بن نوفل رضي الله عنه حين أخذت خديجة إليه النبي صلى الله عليه وسلم: فقالت خَديجةُ: يا ابنَ عَمِّ، اسمَع مِنِ ابنِ أخيكَ، قال ورَقةُ: يا ابنَ أخي، ماذا تَرى؟ فأخبَرَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خَبَرَ ما رَأى، فقال ورَقةُ: هذا النَّاموسُ الذي أُنزِلَ على موسى[1].

وقال النجاشي رضي الله عنه : (إنَّ هذا الكَلامَ ليَخرُجُ مِن المِشكاةِ التي جاء بها موسى) [2].

الامتداد الصرفي والنحوي لصفات القرآن: (يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ)؛ تكرار حرف الجر {إِلَىٰ} في الموضعين. في المرة الأولى عداه إلى غاية معنوية مجردة (الحق)، وفي الثانية عداه إلى غاية حسية ملموسة ترمز للثبات (طريق مستقيم)، ليجمع القرآن بين كمال الغاية ووضوح الوسيلة.

المحاجة الكونية وإحياء الموتى: بعد فراغ مشهد الجن، يرتد السياق إلى مقارعة كفار الإنس، ليربط بين الخلق الأول والبعث:

*(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

---

1 - أخرجه مسلم (160)، وعبد الرزاق (9719)، والبيهقي (17780)، باختلاف يسير. من حديث عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما.

2 - أخرجه أحمد (1740)، وإسحاق بن راهويه في ((مسنده)) (1835)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (1/ 115)، والبيهقي (18471)، جميعا مطولا ، وابن خزيمة (2260) مختصرا، من حديث أم سلمة رضي الله عنها، وصححه شعيب الأرناؤوط.

نحوياً ولسانياً: دخلت همزة الاستفهام الإنكاري على الواو العاطفة. وعبارة (وَلَمْ يَعْيَ) (من العِيّ وهو التعب والعجز) جاءت حالية لتدل على طلاقة القدرة الإلهية، فخلق هذا الكون الهائل لم يورثه نصباً ولا لغوباً.

سر الباء الزائدة: (بِقَادِرٍ)؛ دخلت الباء الزائدة في خبر "أنَّ" (على تقدير أنها مؤكدة لـ "أولم يروا أن الله قادر")، ودخول الباء يفيد التوكيد البليغ لدفع شك المنكرين للبعث.

*(وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ)

البلاغة التهكمية في الموقف الجوابي: (أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا)؛ في الدنيا قالوا عن الوحي والبعث: (هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ) وتعللوا بالأساطير، أما عند مواجهة النار فلم يسعهم إلاّ الإقسام بالله التزاما بالحق، فيأتيهم الجواب الزاجر: (فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ).

خلاصة السورة ووصية الفصل (أولو العزم): تُختتم السورة بالآية التي تعد قاعدة القيادة والدعوة عبر التاريخ البشري، وبها يتنزل التثبيت الأعلى لقلب المصطفى صلى الله عليه وسلم:

(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ)، البنية الأسلوبية والمقصدية: الكاف في (كَمَا) للتشبيه، و"ما" مصدرية. يأمر الله نبيه بمحاكاة السلسلة الراقية من الأنبياء (أصحاب الحزم والثبات التام)، وينهاه عن استعجال العذاب لقومه؛ لأن سنة الله جارية ولها أجل مسمى.

بلاغة التزهيد في الزمن الدنيوي: (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ). هذا التشبيه الباهر يقلص عمر الدنيا الممتد لآلاف السنين، ويجعله في عين المعذّب مجرد "ساعة من نهار"، وهو إيجاز قصر مذهل يكشف تفاهة المتاع الدنيوي الذي من أجله استكبروا وسخروا.

الكلمة الفاصلة والسؤال التهكمي الإشاري: (بَلَاغٌ): مبتدأ لمحذوف، أي: هذا الذي وُعظتم به وشرحناه لكم هو بلاغ كافٍ لمن أراد النجاة.

وقيل قوله تعالى: (بلاغ) أي كالبغة من الشراب والطعام ، حياة ما أقصرها، ومن أبرز من قال بذلك: ابن جرير الطبري: في تفسيره الشهير (جامع البيان)، حيث ذكر في أحد أوجه تفسير الآية أن المعنى: "لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ذلك لبث بلاغ، بمعنى: ذلك بلاغ لهم في الدنيا إلى أجلهم". أي أن مدة بقائهم في الحياة هي مجرد قدر قليل تبلغوا به في دنياهم.

ومثله أبو البقاء العكبري: وغيره من علماء اللغة الذين ربطوا بين (البلاغ) و(البلغة)، ووضحوا أن مدة الحياة الدنيا هي كالبُلْغة التي لا بقاء لها، بل هي متاع قليل ينقضي سريعاً.

(فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ): نحوياً: أسلوب حصر وقصر عن طريق الاستفهام المتضمن معنى النفي والإيجاب (هل... إلا)، وبُني الفعل (يُهْلَكُ) لا لم يسم فاعله.

بلاغياً ومقاصدياً (ابن عاشور): أشار إلى أنّ الله تعالى عدل عن ضمير(هم) إلى الوصف بالفسوق (الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ) (والفسوق هو الخروج عن الطاعة والفطرة) لبيان أن الهلاك ليس عشوائياً ولا ظلماً من الله، بل هو أثر حتمي للفسوق المستمر.

وفي بناء الفعل لما لم يسم فاعله إشارة إلى أن الهلاك يقع عليهم بقانون كوني تسببت فيه أعمالهم، فإنما أعمالهم هي التي أهلكتهم.

خلاصة تدبر السورة كاملاً: بدأت سورة الأحقاف بـ (تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ)، وخُتمت بـ (بَلَاغٌ). وما بين التنزيل والبلاغ، طافت بنا الآيات بين آفاق الكون، وفطرة الأرحام والأولاد، ومصارع الحضارات البائدة (عاد)، وعوالم الغيب الخاضعة (الجن)، لتصل إلى حقيقة واحدة: الكون كله ناطق بالحق، مستسلم لأمر العزيز الحكيم، ولا يشذ عن هذا التناغم إلاّ الإنسان الفاسق المستكبر، فكانت السورة صيحة تحذيرية أخيرة تضع النقاط على الحروف قبل نزول القضاء.

*

سورة محمد

تسمية السورة

(سورة محمد): وهو الاسم المشهور في المصاحف وكتب التفسير، وقد سُميت بذلك لورود اسم النبي ﷺ صراحةً في الآية الثانية منها،

أيضاً أطلق عليها (سورة القتال) وذلك لأنها بيّنت أحكام قتال الكفار ومشروعيته، وذُكر فيها لفظ القتال.، كما سميت كذلك سورة (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) بالآية الأولى منها مختصرة.

وهي سورة **مدنية** بإجماع جمهور العلماء، باستثناء قولٍ ضعيف أو شاذ يعتبرها مكية، وقول آخر يرى أن جميع آياتها مدنية عدا الآية (13) التي نزلت أثناء الهجرة.

يوجد خلاف في عدد آياتها بين علماء العدد من أهل الأمصار، ففي العد الكوفي آياتها 38 آية بينما الباقون عدوا أياتها 39 آية، وذلك حسب مدارس العد، فما عده بعضهم آية قد يعده الآخرون آيتين، والله أعلم.

سبب النزول

تنتمي السورة للمرحلة المدنية بعد الهجرة، حيث تأسست الدولة وبدأ الصدام المسلح، مثل سورة الأنفال والأحزاب والفتح، حيث تأسست الدولة، وبدأ الصدام المسلح، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

*(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (2) ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (3) فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (4) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (5) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (8) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (9) ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (10) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ(11) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (12) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (13) أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم(14))

تمثل هذه لافتتاحية وهذا الاستهلال لسورة محمد إحدى أروع ديباجات سور القرآن الكريم؛

السياق والمقصد العام (المحور الموضوعي): تُسمى هذه السورة سورة "محمد" وسورة "القتال"، على أنّ المقصد الرئيس المستمر عبر الآيات هو "الفرز والمفاصلة الحاسمة" بين الحق والباطل، وبيان مصير الأعمال تبعاً للاستجابة للوحي.

عند البقاعي: السورة كلها تدور حول "إثبات الهدى والنصر لمن اتبع الرسول، ومحق أعمال من خالفه".

أمّا عند سيد قطب فالآيات تنبض بحركة واقعية عنيفة، ترسم خطوط المعركة الفاصلة بين معسكر الإيمان ومعسكر الجاهلية، وتجرد المؤمنين ليكونوا أداة القدر الإلهي.

التحليل البلاغي والأسلوبي (المعاني والبيان): التقابل والمقابلة: بُنيت الافتتاحية على نظام "المقابلة التامة" لتثبيت حقائق الفرز:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عن سبيل الله) في مقابل (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)، (أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) في مقابل (كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ).

هذا التقابل الهيكلي يُبرز التباين الحاد في المصير والمآل؛ فالكون في الرؤية القرآنية لا يحتمل هلامية المواقف.

الإطناب بالاعتراض والتوكيد: في قوله تعالى: (وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ): نكتة عطف الخاص على العام: عطف الإيمان بما نُزل على محمد بعد "آمنوا" العام، للتنويه بشرف الرسول ﷺ وبأن الإيمان لم يعد مقبولاً إلاّ من هذا الباب.

الجملة الاعتراضية الواوية في قوله سبحانه: (وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ): تفيد تحقيق التلازم بين الوحي والحق التابع من الربوبية، وفيها تعريض بطلان ما يمسك به الكفار.

الإيجاز بالحذف والالتفات الإيقاعي: في آية القتال: (فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ):

فَضَرْبَ مفعول مطلق ينوب عن فعله (فاضربوا ضرب الرقاب). هذا الإيجاز يعطي النص سرعة حركية تشبه سرعة ضرب السيف في المعركة، فجاء اللفظ على وزن الفعل وسرعته.

التعبير بـ الرِّقَابِ دون "اقتلوهم" تصوير دقيق لموطن الإجهاز، وهو تشديد غايته كسر شوكة القوة المادية للباطل.

التشبيه التمثيلي والتهكم البلاغي في قوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ):

عند ابن القيم: هذا تشبيه مقلوب من جهة الغاية؛ فالأنعام تأكل لتعيش وتقوم بوظيفتها التي خُلقت لها، أما الكافر فيأكل مستمتعاً بدنياه غافلاً عن آخرته، فصارت الأنعام أهدى منه سبيلاً.

تقديم يَتَمَتَّعُونَ على وَيَأْكُلُونَ يشير إلى انحصار همّهم في اللذة الحسية الراهنة، مجردين من أي أفق روحي.

دلالة الفعل والاسم (الحدوث والثبوت): وجّه ابن عاشور النظر إلى صياغة الأفعال والأسماء في الافتتاحية:

(أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ): جاء بالفعل الماضي الدال على التحقق والوقوع الصارم، أي حكم عليها بالضياع والبطلان حكماً ناجزاً.

(أَصْلَحَ بَالَهُمْ): فعل ماضٍ كذبك يفيد ثبوت الصلاح واستقراره في قلوبهم وحالهم بمجرد الإيمان.

موقع "البال" في النظم اللغوي في قوله تعالى: (وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ): البال في اللسان العربي هو الحال، والشأن، وخاطر القلب.

لفتة ابن تيمية: صلاح البال هو أعظم النعيم الدنيوي والأخروي، لأنه يشمل طمأنينة القلب، وسكينة النفس، وسلامة الفكر من الحيرة والشكوك. وحين يجمع الله بين "تكفير السيئات" و"إصلاح البال"، فإنه يؤمنهم من الخوف الماضي (الذنوب) والخوف الأجل والمستقبل (الاضطراب النفسي والوجودي).

الفاء السببيّة والشرطية: في قوله تعالى: (فَإِذَا لَقِيتُمُ)... (فَضَرْبَ الرِّقَابِ): الفاء رابطة لجواب الشرط، تفيد الفورية والترتيب؛ إذ لا مجال للتردد عند مواجهة الباطل الحربي.

وفي قوله تعالى: (إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ): جملة شرطية جزمت فعلين. تعليق النصر الإلهي بنصرة العبد لدين الله هو شرط تمكيني. الله غني عن عباده، لكن "النصرة" هنا هي اختبار العبودية وحركة الجوارح.

الإشارات السياقية والمناسبات (تلاحم النظم): مناسبة مطالع السورة لخواتيم سورة الأحزاب/الفتح والواقع المدني:

تنتمي السورة للمرحلة المدنية بعد الهجرة، حيث تأسست الدولة وبدأ الصدام المسلح.

يشير البقاعي في نظم الدرر إلى ارتباط السورة الهجرة ارتباطاً وثيقاً، يظهر هذا جلياً في قوله تعالى: (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ)، فالسورة تطمئن قلب النبي ﷺ وأصحابه المستضعفين الذين أُخرجوا من مكة بأن القوة المادية لقرى الكفر لا قيمة لها أمام الإرادة الإلهية.

دلالة الاقتران بين "العمل الصالح" و"الإيمان بالوحي": كرر الله في الآية الثانية: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ).

ويأتي السؤال: لماذا كرر الإيمان؟، ويجيب ابن عاشور: بأنّ الإيمان الأول هو الإيمان الإجمالي بالله، أمّا الثاني فهو الإيمان التفصيلي بشريعة محمد ﷺ ونسخها لما

قبلها، وفي هذا قطع لطمع أهل الكتاب أو مشركي العرب الذين قد يدّعون الإيمان بالله مع جحودهم بالرسالة الجديدة.

قلت: وكذا في عصرنا مثل أدعاء الديانات الإبراهيمية ونحوها ليكبلوا المسلمين بمعاهدات ذات أصول كاذبة أو منسوخة.

*(وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ)

الأبعاد المقاصدية والتربوية (فقه الحركة والقلوب): مقصد "إحباط العمل" ومقابل "عدم إضلاله"، وقد تعرضت لدراسة مسائل حبوط العمل في الآية الثانية من سورة الحجرات فليراجع هناك.

المقصد العقدي الأساسي هنا هو ربط قيمة العمل بالمنطلق الاعتقادي. الأعمال الصورية الأخلاقية التي يفعلها غير المؤمنين (كصلة الرحم أو إطعام الفقير) يحكم عليها القرآن بـ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ، وأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ.

تعليل محمد قطب: العمل بلا إيمان كجسم بلا روح، أو كأرقام هائلة تُضرب في "صفر"؛ فالإيمان هو القيمة التأسيسية التي تعطي للعمل وزناً في ميزان الحق. وفي المقابل، الشهداء والمؤمنون (فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ) بل تنمو وتثمر وتخلد آثارها، (سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ، وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ).

الابتلاء بالدافعية الحركية: قوله تعالى: (وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ):

عند سيد قطب: هذا هو المفصل المقاصدي لفلسفة الجهاد والابتلاء في الإسلام. الله قادر بكلمة "كن" أن يبيد المعسكر الكافر، لكنه شَرع مدافعة البشر ليخرج مكنون القلوب، ويتميز الصابر من المنافق، ولتتربى الأمة المؤمنة عبر التضحية والجهد والدم، فلا تنال النصر رخيصاً بل تناله وهي جديرة بحمل أمانة الخلافة في الأرض.

الموالاة الإلهية بوصفها جدار الأمان الوجودي: تختم الآية (11) هذا المقطع بتقرير قاعدة سننية: (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ).

عند ابن القيم: "الولاية" هنا هي ولاية النصرة والتأييد والحفظ والتسديد الخاص. المؤمن يستند إلى ركن شديد لا يزول، بينما الكافر -مهما حشد من تحالفات وقوى مادية وأسلحة- ينطلق من فراغ، بلا سند غيبي أو ظهير حقيقي، مما يجعل هزيمته النفسية والمادية حتمية تاريخية وسُننية.

خلاصة هذا الدرس:

الآيات	المحور اللغوي والبلاغي الحاكم	الأثر النفسي والمقاصدي
3-1 (الذين كفروا)- (ذلك بأن الذي كفروا اتبعوا الباطل	مقابلة تامة بين اتباع الباطل (إضلال الأعمال) واتباع الحق (إصلاح البال).	التمايز الوجودي، وتحديد منطلق القيمة.
6-4(فإذا لقيتم) – إلى- (ويدخلهم الجنة عرفها لهم)	إيجاز حركي حاسم (فَضَرْبَ الرِّقَابِ) وتعليل سنني للابتلاء	التجريد للحركة والجهاد، وخلود عمل الشهيد.
9-7 (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله) إلى آية 9	أسلوب شرط تمكيني للمؤمنين، وتذييل بـ "التعس" والإحباط لعمل الكافرين.	ربط النصر البشري بنصرة الشريعة قلباً وقالباً
14-10 (وكأين من قرية) إلى آية 14	استدلال تاريخي مشهود (أَفَلَمْ يَسِيرُوا) وتشبيه تهكمي للكافرين بالأنعام.	إسقاط الهيبة المادية للباطل وبيان رخص عيش الكافر وغفلته.

*(مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (15)وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (16) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (17) فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (18) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ(19) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (20) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (21) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (23) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (25) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (26) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (28) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ(29)

وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (30)وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ(31))

استكمالاً للشوط الأول من سورة "محمد"، يأتي هذا الشوط أو الدرس الثاني لينتقل بالفرز والمفاصلة من مشهد المواجهة الخارجية الشاملة، إلى التغلغل في عمق النفس البشرية، كاشفاً عورات النفاق والتردد، ومستخرجاً خبايا القلوب، ومتدرجاً في المقارنة الوجودية بين النعيم الخالص والعذاب الأبدي.

السياق والمقصد العام (مرحلة الفرز الداخلي): إذا كان المقطع الأول قد رسخ معالم المعركة بين الإيمان الصريح والكفر الصريح، فإن هذا المقطع يتجه إلى "الطابور الخامس" داخل الصف المسلم؛ أي المنافقين ومرضى القلوب.

عند البقاعي: المقصد هنا هو "الفضح العلمي والعملي لمن يبطن خلاف ما يظهر"، وبيان أنّ المحك الحقيقي للإيمان هو الاستجابة للأوامر الصارمة (وذكر فيها القتال)، (أفلا يتدبرون القرآن).

أمّا عند سيد قطب فالنص يتحول هنا إلى مبضع جراح يشق الصدور، ليرينا الرعب النفسي الذي يعتري القلوب المريضة والمهتزة حين تواجه الجد الإلهي.

التحليل البلاغي والأسلوبي (المعاني والبيان والبدائع): المقابلة التمثيلية الكبرى حيث تبدأ الآية (15) بأعجب تركيب للمقابلة: (مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ).

سر الحذف اللغوي في النظم: تقدير الكلام عند أئمة البيان: "أفمن هو في هذا النعيم كمن هو خالد في النار؟" وحُذف المبتدأ والخبر لدلالة السياق، مما أحدث هزة ذهنية مفاجئة للمتلقي تنقله من قمة الترف الروحي والحسي إلى قاع العذاب المقزز.

بلاغة التضاد الحسي: في الجنة أربعة أنهار (مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ / لَبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ / خَمْرٍ لَّذَّةٍ للشاربين/ عَسَلٍ مُّصَفًّى)، وهي أصول الأشربة التي تفسد في الدنيا بالركود أو الوقت أو المزج، فجاءت في الجنة مبرأة من الآفات. وفي المقابل، شراب واحد لأهل النار: (وسقوا مَاءً حَمِيمًا لا يروي بل فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ).

*(وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)

البلاغة الساخرة والتهكم اللفظي: (قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا): عند ابن عاشور: اللفظ يحمل استهزاءً خفياً بطريقة المنافقين؛ فهم يجلسون بجسدهم في مجلس النور، لكن قلوبهم في تيه، فإذا خرجوا سألوا بسخرية وتغافل: "ماذا قال

صاحبكم آنفاً (قبل قليل)؟" كأن كلام النبي ﷺ لا يستحق الوعي أو الالتفات، فجاء الرد الإلهي حاسماً ببيان العلة: (أولئك الذين طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ).

وهذا يذكرنا بوصفه تعالى لهم في قوله تعالى في سورة المنافقون: (كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ): فهو تشبيه قرآني يبلغ ذروة الإهانة الأدبية. الخشب في ذاتها قد تكون مفيدة إذا كانت جزءاً من بناء، لكنها هنا "مسندة" أي مهملة لا قيمة لها، مفرغة من الروح والحياة، رغم ضخامة الأجسام وحلاوة المنطق. وأشار محمد قطب هنا إلى ضياع "الجوهر الإنساني" وتحول الإنسان إلى مجرد هيكل مادي.

سبب الآية: قال مقاتل: وذلك أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب ويعيب المنافقين، فإذا خرجوا من المسجد سألوا عبد الله بن مسعود استهزاء: ماذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ) فلم يؤمنوا (وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ) في الكفر والنفاق.

يقابلهم: (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا) يعني: المؤمنين، (زَادَهُمْ) ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم (هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) وفقهم للعمل بما أمرهم به، وهو التقوى، قال سعيد بن جبير: آتاهم ثواب تقواهم.

الإشارات السياقية والمناسبات وتلاحم الآيات: التلازم بين زيادة الهدى وعزم الأمر:

بعد أن وصف الله سبحانه في الآية السابقة تيه المنافقين، التفت سبحانه فوراً إلى معسكر المؤمنين: (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ)، وفي ذلك ما فيه من التعريض بالمنافقين.

عند ابن القيم: هذا برهان على أن الجزاء من جنس العمل، فمن أقبل على الوحي مستمعاً بصدق، فتح الله عليه مسالك أخرى من العلم والعمل والتقوى (الهداية تولّد الهداية).

يرتبط هذا بقوله لاحقاً: (فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ). فالهداية الحقيقية تظهر عند "عزم الأمر" واشتداد التكليف، وليس في الرخاء.

*(فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً) عن أبي هريرة رضي عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بادِروا بالأعمالِ سبعًا : هل تنظرون إلَّا فقرًا

مُنسِيًا، أو غنًى مُطغِيًا، أو مرضًا مُفسِدًا، أو هِرَمًا مُفنِّدًا أو موتًا مُجهِزًا ، أو الدَّجَّالَ، فشرٌّ غائبٌ يُنتَظرُ، أو السَّاعةُ فالسَّاعةُ أدهَى وأمرُّ[1].

(فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ۚ) أي: أماراتها وعلاماتها، واحدها شرط، وكان النبي صلى الله عليه وسلم من أشراط الساعة. (فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ)، لا تقبل التوبة حينئذ.

عن سهل بن سعد رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: بُعِثتُ أنا والسَّاعةُ كَهذه مِن هذه، أو: كَهاتَينِ، وقَرَنَ بينَ السَّبَّابةِ والوُسطى [2].

وقال القرطبي رحمه الله : أول أشراط الساعة : النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه نبي آخر الزمان ، وقد بُعث وليس بينه وبين القيامة نبي " انتهى[3].

ال السُّمعانيُّ--في قوله تعالى-: (أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ) أجمَعَ الْمُفَسِّرونَ على أنَّه أرادَ به طُلوعَ الشَّمسِ من مَغرِبِها، إلَّا في رِوايةٍ شاذَّةٍ عَن مُعاذِ بن جَبَلٍ أنَّه: خُروجُ الدَّجَّالِ، وخُروجُ يَأجوجَ ومَأجوجَ. وقَد ثَبَت برِوايةِ ابنِ مَسعودٍ عَنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال فيه:(هيَ طُلوعُ الشَّمسِ من مَغرِبِها)، وكَذلك أخرجه أبو سَعيدٍ الخُدريُّ مَرفوعًا بلَفظِه [4].

وعَن صَفوانَ بن عَسالٍ رَضِيَ الله عَنه أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال)) :إنَّ الله جَعَلَ بالمَغرِبِ بابًا عَرضُه مَسيرةُ سَبعين عامًا للتَّوبةِ لا يُغلَقُ ما لَم تَطلُعِ الشَّمسُ من قِبَلِه، وذلك قَولُ الله عزَّ وجَلَّ :يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إيمَانُهَا الآية[5].

ومعنى القرب: هو القرب الذي في علم الله تعالى وحسابه، لا في علم البشر وحسابهم

قال الشيخ عمر الأشقر رحمه الله :" قد يقال: كيف يكون قريباً ما مضى على الإخبار بقرب وقوعه ألف وأربعمائة عام ؟

---

1 - أخرجه الترمذي (2306)، وابن أبي الدنيا في ((قصر الأمل)) (109)، والعقيلي في ((الضعفاء الكبير)) (4/ 230) بلفظه.

2 - أخرجه البخاري (5301) ومسلم (2950)، وأحمد (22796)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (6/ 175) (5912)، والحميدي (954) جميعا باختلاف يسير.

3 - التذكرة (ص111).

4 - يُنظر: ((تفسير السمعاني))(159 /2)

5 - خرجه الترمذي (3536) واللفظ له، وابن ماجه (4070)، وأحمد (18093، 18094) مفرقاً باختلاف يسير. صححه الترمذي، وابن حبان في ((صحيحه)) (1321)، وابن العربي في ((الناسخ والمنسوخ)).(2/156)

والجواب: أنه قريب في علم الله وتقديره، وإن كانت المقاييس البشرية تراه بعيداً (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا. وَنَرَاهُ قَرِيبًا) [المعارج:6 ، 7] انتهى[1].

التحليل اللفظي والنحوي : بلاغة صيغ المبالغة والمفاعيل في قوله: (فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ): الترتيب اللساني غاية في الدقة؛ الصمم قدم على العمى، لأن السماع هو أداة التلقي الأولى للقرآن والوحي (يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ). فلما تعطلت دلالة السماع الاختياري، عاقبهم الله بالصمم والعمى القدري الجبري.

*(وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ).

سؤال: لماذا يجيء سؤال أو طلب السورة من الذين آمنوا؟ ويجيب سيد قطب رحمه الله بقوله: وتطلع الذين آمنوا إلى نزيل السورة: إمّا أن يكون مجرد تعبير عن شوقهم إلى سورة جديدة من هذا القرآن الذي يحبونه، ويجدون في كل سورة منه زادا جديداً حبيبا، وإما أن يكون تطلعاً إلى سورة تبين أمراً من أمور الجهاد،، وتفصل في قضية من قضايا القتال، تشغل بالهم، فيقولون : (لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ) انتهى [2]..

الصورة والتشخيص النفسي: في قوله تعالى: (فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ):

هذا من أعلى فنون "التصوير الفني" الذي برع في التقاطه سيد قطب -رحمه الله-: المشهد يرسم حالة الهلع والجبن؛ فالأعين شاخصة، ممتلئة بالرعب، ثابتة لا ترمش كعين من شارف على سكرات الموت.

نكتة التعبير بـ (يَنظُرُونَ إِلَيْكَ)؛ فالنبي ﷺ يمثل مصدر التكليف بالجهاد، فالنظر إليه شاق وثقيل على نفوسهم المريضة.

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا): التنكير: جاءت كلمة (قُلُوبٍ) نكرة، لإفادة أنها قلوب غريبة، شاذة، منكرة لا تؤدي وظيفتها البشرية.

تعريف (أَقْفَالُهَا) بالإضافة: أضيفت الأقفال إلى القلوب (هَا)، لبيان أنها أقفال مخصصة لها، ملازمة لا تنفك عنها، مصممة لإغلاق هذا النوع من القلوب المنافقة.

*(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ، وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ)

1 - عمر الأشقر: القيامة الصغرى (ص 115).
2 - سيد قطب: في ظلال القرآن (ج6/ ص 3296).

دلالة "لحن القول": في قوله: (وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ): عند ابن تيمية وابن القيم: اللحن في اللغة هو الانحراف بالقول إلى مقصود خفي، أو الإيماء والإشارة المبطنة. الإنسان قد يملك التحكم في ملامح وجهه (سِيمَاهُمْ)، ولكنه يعجز عن ضبط فلتات لسانه إذا حركته الغايات والمصالح. الصياغة اللغوية تفيض بحقائق النفس؛ فالإيقاع الصوتي والعبارات الملتوية والهمز واللمز تكشف النفاق لا محالة.

الأبعاد المقاصدية والتربوية (فقه الحركة والابتلاء): مقصد "الصدق الوجودي" وعاقبة التولي:

*(فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ): عند محمد قطب: المقصد التربوي العميق هنا هو بيان أن "الانسحاب من تكاليف المنهج الرباني (التولي والهرب من الجهاد) لا يعني السلامة، بل يعني السقوط في الجاهلية الفوضوية". إذا ترك البشر شريعة الله، ارتدوا فوراً إلى قطع الأرحام والإفساد المادي والمعنوي؛ فالقلب لا يظل فارغاً، إما أن يملأه نور الوحي أو ظلمات الجاهلية.

مركزية التدبر كحارس من الردة: جعل الله آية التدبر (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ) معقباً عليها بقوله: (إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم).

الربط عند ابن عاشور: الران والنفاق والارتداد تبدأ أولاً من هجر التدبر، وحين يفقد الإنسان تواصله العقلي والقلبي الخاشع مع النص القرآني، يصبح لقمة سائغة للشيطان يسول له ويملي له، ويسقط في فخ التنازلات الفكرية والسياسية (ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ والله يعلم إسرارهم).

مقصد الابتلاء لاستخراج المكنون: ختام المقطع يضع القاعدة الذهبية التي تدور حولها السورة: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ).

العلم هنا هو علم الظهور والشهادة الذي يترتب عليه الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة، لأن الله يعلم الأشياء قبل كونها.

عند سيد قطب: إنها سنة الابتلاء التي لا تتخلف؛ ليميز الله الخبيث من الطيب، ولتُسقط المعارك والشدائد الأقنعة الزائفة، فلا يبقى في الصف إلاّ العقيدة الخالصة الصلبة القادرة على حمل أمانة الأرض والسماء.

خلاصة:

الآيات	المحور اللغوي والبلاغي الحاكم	الأثر النفسي والمقاصدي

(مثل الجنة التي وعد المتقون)	حذف المبتدأ والخبر للمقابلة الصادمة بين خلود النعيم وخلود العذاب	. بيان عاقبة اتباع الحق والباطل حسياً وروحياً.
ومنهم من يمتمع إليك) إلى آية 19	التقابل بين الاستفهام التهكمي للمنافقين وزيادة الهدى للمؤمنين	التوجيه بمركزية العلم والذكر (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ).
(ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة) إلى آية 23	التشبيه الاستعاري لحال الجبن (نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ).	فضح حقيقة النفاق عند التكليف العملي (الجهاد).
(أفلا يتدبرون القرآن) إلى آية 28	الاستفهام الإنكاري للتوبيخ (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ) واستعارة "الأقفال".	. كشف أسباب الارتداد الفكري والسياسي والتحذير من المداهنة.
(أم حسب الذين في قلوبهم مرض ألن يخرج الله أضغانهم) إلى آية 31	دلالة المفهوم واللفظ الخفي (لَحْنِ الْقَوْلِ) وحرف الاستقبال والتأكيد (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ).	اليقين بأن الله مخرج الضغائن، ومحك التميز هو الصبر والجهاد.

*(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32) ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (33) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (34) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36) إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (37) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم(38))

هذه الآيات الكريمة من أواخر وخواتيم سورة محمد تمثل ختاماً حاسماً للسورة التي سُميت أيضاً بسورة "القتال". يمتزج فيها الدرس العقدي بالبيان التشريعي، والتحليل النفسي البليغ للنفس البشرية في مواجهة التكليف (بالمال والنفس).

السياق والمقاصد: السياق السوري: السورة بُنيت على ميزان "الإحباط والإصلاح" من أول آية في السورة: (أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) مقابل (وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ)، وتأتي هذه الآيات الختامية لتضع الخيار النهائي والأخير أمام الفئتين.

الربط والنظم (عند البقاعي): يرى البقاعي في نظم الدرر أن هذا الختام جاء ليحذر المؤمنين من التشبّه بأحوال الكفار وأهل الكتاب (المنافقين) الذين شاقوا الرسول، فتبطل أعمالهم كما حبطت أعمال أولئك.

الظلال المقاصدية : يوضح سيد قطب (في ظلال القرآن) أنّ المحور الأساسي هنا هو "الاستعلاء العقدي والتجريد لله". فالآيات تخلع عن الدنيا قيمتها الذاتية لتجعلها وسيلة للآخرة، وتكشف الشح النفسي، وتربي الجماعة المسلمة على الاستقلال التام، والتهيؤ لحمل أمانة الدين بغير منٍّ ولا تردد.

القراءة اللسانية والنحوية: تحفل الآيات بظواهر نحوية وصرفية تخدم المعنى بشكل دقيق:

صيغة التفعيل في (وَصَدُّوا)، (وشاقّوا): جاء بالتضعيف ليدل على المبالغة والتكرار؛ فهم لم يكتفوا بالضلال في أنفسهم، بل بذلوا جهداً مكثفاً لصد غيرهم عن سبيل الله.

إعراب ودلالة (وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ): الجملة هنا حالية (واو الحال + مبتدأ وخبر). والخبر جاء معرفاً بألـ (الْأَعْلَوْنَ) ليفيد قصر صفة العلو الحقيقي وثباتها للمؤمنين في تلك الحال (حال دعوتهم إلى السلم أو مواجهتهم للعدو في الحرب)، وهو علو بالمنهج والعقيدة لا بالعدد والعدة فقط.

تعدية الفعل (يَتِرَكُمْ): الفعل "وَتَرَ" يتعدى لمفعولين. في قوله (وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ): الكاف مفعول أول، وأعمالكم مفعول ثانٍ. والمعنى اللساني: لن ينقصكم أو يسلبكم شيئاً من ثواب أعمالكم (من الوَتْر وهو الفرد أو النقص).

شرطية النفي في الجملة الجزائية (إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا): (إن يسألكموها فيُحْفِكُمْ): الإحفاء هو المبالغة في الطلب والاستقصاء.

وجواب الشرط (تَبْخَلُوا) جاء مترتباً على الإحفاء، وفي هذا غوص لساني في طبيعة الجبلة البشرية التي جُبلت على الشح؛ فالبشر لا يبخلون بمجرد السؤال، وإنما إذا وقع "الإلحاف والإحفاء".

الاستعارة والتمثيل النفسي: (إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ): الأضغان هي الأحقاد الكامنة. شُبهت الأضغان المستورة في النفوس بشيء مادي مخبوء في الأرض يُخرجه الحفر والاستقصاء. وهذا من عجيب البلاغة القرآنية في وصف النفس (النفس تبخل، فإذا ضُغط عليها بالطلب تحول البخل إلى حقد وكراهية للمطالِب).

اللمسات البلاغية والبيانية: التكرار والتقابل (التناظر البياني): قارن بين الآيتين

الأولى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا... وَشَاقُّوا الرَّسُولَ) -> جزاؤهم: (لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ).

الثانية: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا... ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ) -> جزاؤهم: (فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ).

توجيه ابن عاشور (التحرير والتنوير): التكرار ليس محض إعادة، فالآية الأولى نزلت فيمن حاربوا ورتب عليها "إحباط العمل في الدنيا والآخرة"، والثانية نزلت فيمن مات على ذلك ورتب عليها "استحالة المغفرة"، وفي هذا قطع لأي أمل للمشركين وتثبيت للمؤمنين.

قوله تعالى: (إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ): تقديم أداة الحصر (إِنَّمَا) لتأكيد قصر حقيقة الدنيا (باعتبار ذاتها الفانية) في هاتين الصفتين، وهو ما يمهد نفسياً لتسهيل الإنفاق؛ إذ كيف يبخل عاقل بماله على دين باقٍ ويمسكه من أجل حياة هي لعب ولهو؟

الالتفات والخطاب التوبيخي الإشاري: (هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لتنوفقوا): تركيب بلاغي فريد يجمع بين "ها" التنبيه، وضمير الخطاب "أنتم"، واسم الإشارة "هؤلاء". يؤكد ابن عاشور أن هذا الأسلوب يؤتى به لتنزيل المخاطبين منزلة الغائبين الحاضرين للتعجيب من حالهم؛ كأنه يقول: "انظروا إلى أنفسكم في هذه الحالة العجيبة! تُدعون لتنفقوا على أنفسكم (في سبيل الله) فتبخلون!".

التحليل النفسي والتربوي: اعتنى شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم -رحمهما الله-، ومن المعاصرين محمد قطب – رحمه لله- (في كتابه دراسات في النفس الإنسانية)، بالجانب التربوي والنفسي لمثل هذه الآيات:

حقيقة الغنى والفقر العقدية: (وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ). يقرر ابن القيم في مدارج السالكين أن الفقر هنا هو الفقر الذاتي لجميع الخلائق، والغنى هو الغنى الذاتي لله. الربط هنا بين التشريع والعقيدة يوضح للمؤمن أن الله حين يطلب منك الإنفاق أو الجهاد، لا يطلبه لحاجة، وإنما هو ابتلاء ليزكيك ويؤتيك أجرك.

فلسفة الشح والنفس البشرية: قوله تعالى (وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ). الباخل يظن أنه يحرم غيره، والقرآن يصحح هذا المفهوم النفسي: "أنت تحرم نفسك الثواب، وتحرم نفسك البركة، وتحرم أمتك القوة".

سنة الاستبدال وجبروت الحق: تنتهي السورة بتهديد كوني مرعب وهادئ في آن واحد: (وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم).

يقول محمد قطب ما معناه: إن الله لا يتشرف بالخلق، بل الخلق يتشرفون بالعمل له. فإذا تخلى الجيل المؤمن عن التكليف لشح في المال أو شح في النفس (الخوف من الموت والوهن)، فإن قطار القدر الإلهي لا يتوقف؛ سيمضي ويأتي بآخرين يملكون "أصالة الولاء" التي فُقدت عند المتولّين.

خلاصة: تبدأ المقارنة ببيان عجز الكفار عن ضرر الله وتفاهة كيدهم (لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا)، وتمر بأمر المؤمنين بالطاعة والاستعلاء بوعي عالي ونفسية عزيزة لا تطلب السلم من موضع ضعف (فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ)،

ثم تُعالج العائق الأكبر أمام هذا الاستعلاء وهو (حب الدنيا والمال)، وتنتهي بوضعهم أمام مسؤوليتهم التاريخية: إما القيام بحق هذا الدين، أو السقوط في هاوية "الاستبدال".

*

سورة الفتح

تسمية السورة

(سورة الفتح): وهو اسم السورة في المصاحف وكتب التفسير، لم يُعرف لهذه السورة العظيمة سوى هذا الاسم الواحد الثابت والتوقيفي، وقد سُميت بذلك لافتتاحها بالبشارة الإلهية للنبي ﷺ بهذا الفتح، والمقصود به عند جمهور المفسرين **هو** صلح الحديبية.

وهي سورة مدنية بالإجماع، ولا يوجد أي خلاف بين علماء العدد في عدد آياتها؛ فهي 29آيةً في جميع المصادر والمدارس العددية

سبب نزول السورة

وعن سَهلِ بنِ حُنَيفٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال : أيُّها النَّاسُ اتَّهِموا أنفُسَكم؛ فإنَّا كُنَّا مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومَ الحُدَيبِيَةِ، ولو نَرى قِتالًا لقاتَلْنا، فجاء عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ فقال: يا رَسولَ اللهِ، ألَسْنا على الحَقِّ وهمْ على الباطِلِ؟! فقال: بلَى! فقال: أليْس قَتْلانا في الجنَّةِ وقَتْلاهم في النَّارِ؟! قال: بلى! قال: فعَلامَ نُعطي الدَّنِيَّةَ في دِينِنا؟! أنَرجِعُ ولَمَّا يَحكُمِ اللهُ بيْنَنا وبيْنَهم؟! فقال: يا ابنَ الخَطَّابِ، إنِّي رَسولُ اللهِ، ولنْ يُضَيِّعَني اللهُ أبدًا! فانطلَقَ عُمَرُ إلى أبي بَكرٍ فقال له مِثلَ ما قال للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: إنَّه رَسولُ اللهِ، ولنْ يُضَيِّعَه اللهُ أبدًا! فنَزَلت سورةُ الفَتحِ، فقَرَأَها رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على عُمَرَ إلى آخِرِها. فقال عُمَرُ: يا رَسولَ اللهِ، أوَفَتحٌ هو؟! قال: نعمْ[1]

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال : لَمَّا نزَلَت : (إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا إلى قَولِه :فَوْزًا عَظِيمًا) [الفتح:1- 5] مَرْجِعَه مِنَ الحُدَيبِيَةِ، وهم يُخالِطُهم الحُزنُ والكآبةُ، وقدْ نَحَر الهَدْيَ بالحُدَيبيَةِ، فقال: لقدْ أُنزِلتْ علَيَّ آيةٌ هي أحَبُّ إليَّ مِن الدُّنيا جميعًا! [2].

وعن المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال: خرَج النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم زمَنَ الحُديبيَةِ في بضعَ عشر مئةً مِن أصحابِه حتَّى إذا كانوا بذي الحُليفةِ قلَّد رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأشعَر ثمَّ أحرَم بالعمرةِ وبعَث بيْنَ يدَيْهِ عينًا له رجُلًا مِن خُزاعةَ يجيئُه بخبرِ قريشٍ وسار رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتَّى إذا كان بغَديرِ

1 - أخرجه البخاريُّ (3182) واللفظ له، ومسلمٌ(1785)
2 - أخرجه مسلمٌ(1786)

الأشطاطِ قريبًا مِن عُسْفانَ أتاه عينُه الخُزاعيُّ فقال: إنّي تركْتُ كعبَ بنَ لُؤيّ وعامرَ بنَ لؤيّ قد جمَعوا لك الأحابيشَ وجمَعوا لك جموعًا كثيرةً وهم مقاتِلوك وصادُّوك عن البيتِ الحرامِ فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (أشيروا علَيَّ أترَوْنَ أنْ نميلَ إلى ذراريّ هؤلاء الَّذين أعانوهم فنُصيبَهم فإنْ قعَدوا قعَدوا مَوتورين محزونين وإنْ نجَوْا يكونوا عُنقًا قطَعها اللهُ أم ترَوْنَ أنْ نؤُمَّ البيتَ فمَن صدَّنا عنه قاتَلْناه) ؟ فقال أبو بكرٍ الصِّدّيقُ رضوانُ اللهِ عليه: اللهُ ورسولُه أعلمُ يا نبيَّ اللهِ إنَّما جِئْنا مُعتمرينَ ولم نجِئْ لقتالِ أحدٍ ولكنْ مَن حال بينَنا وبيْنَ البيتِ قاتَلْناه فقال النَّبيُّ ـ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (فرُوحوا إذًا) قال الزُّهريُّ في حديثِه: وكان أبو هُريرةَ يقولُ: ما رأَيْتُ أحدًا أكثرَ مشاورةً لأصحابِه مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال الزُّهريُّ في حديثِه عن عُروةَ عنِ المِسوَرِ ومَروانَ في حديثِهما: فراحوا حتَّى إذا كانوا ببعضِ الطَّريقِ قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (إنَّ خالدَ بنَ الوليدِ بالغَميمِ في خيلٍ لقريشٍ طليعةً فخُذوا ذاتَ اليمينِ) فواللهِ ما شعَر بهم خالدُ بنُ الوليدِ حتَّى إذا هو بقَترةِ الجيشِ فأقبَل يركُضُ نذيرًا لقريشٍ وسار النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتَّى إذا كان بالثَّنيَّةِ الَّتي يُهبَطُ عليهم منها فلمَّا انتهى إليها برَكتْ راحلتُه فقال النَّاسُ: حَلْ حَلْ فألحَّتْ فقالوا: خلَأتِ القصواءُ فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (ما خلَأتِ القصواءُ وما ذلك لها بخُلُقٍ ولكنْ حبَسها حابسُ الفيلِ) ثمَّ قال: (والَّذي نفسي بيدِه لا يسأَلوني خُطَّةً يُعظِّمون فيها حُرماتِ اللهِ إلَّا أعطَيْتُهم إيَّاها) ثمَّ زجَرها فوثَبتْ به قال: فعدَل عنهم حتَّى نزَل بأقصى الحُديبيَةِ على ثَمَدٍ قليلِ الماءِ إنَّما يتبَرَّضُه النَّاسُ تبرُّضًا فلم يلبَثْ بالنَّاسِ أنْ نزَحوه فشُكي إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم العطشُ فانتزَع سهمًا مِن كِنانتِه ثمَّ أمَرهم أنْ يجعَلوه فيه قال: فما زال يَجيشُ لهم بالرِّيِّ حتَّى صدَروا عنه: فبينما هم كذلك إذ جاءه بُدَيْلُ بنُ ورقاءَ الخزاعيُّ في نفرٍ مِن قومِه مِن خُزاعةَ وكانت عَيْبَةَ نُصح رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أهلِ تِهامةَ فقال: إنّي تركْتُ كعبَ بنَ لؤيّ وعامرَ بنَ لؤيّ نزَلوا أعدادَ مياهِ الحُديبيَةِ معهم العُوذُ المَطافيلُ وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيتِ الحرامِ فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (إنَّا لم نجِئْ لقتالِ أحدٍ ولكنَّا جِئْنا مُعتمرينَ فإنَّ قريشًا قد نهَكَتْهم الحربُ وأضرَّت بهم فإنْ شاؤوا مادَدْتُهم مدَّةً ويُخلُّوا بيني وبيْنَ النَّاسِ فإنْ ظهَرْنا وشاؤوا أنْ يدخُلوا فيما دخَل فيه النَّاسُ فعَلوا وقد جَمُّوا وإنْ هم أبَوْا فوالَّذي نفسي بيدِه لأُقاتِلَنَّهم على أمري هذا حتَّى تنفرِدَ سالفتي أو لَيُبْدِيَنَّ اللهُ أمرَه) قال بُدَيْلُ بنُ وَرْقاءَ: سأُبلِغُهم ما تقولُ: فانطلَق حتَّى أتى قريشًا فقال: إنَّا قد جِئْناكم مِن عندِ هذا الرَّجُلِ وسمِعْناه يقولُ قولًا فإنْ شِئْتم أنْ نعرِضَه عليكم فعَلْنا فقال سفهاؤُهم: لا حاجةَ لنا في أنْ تُخبِرونا عنه بشيءٍ وقال ذو الرَّأيِ: هاتِ ما سمِعْتَه يقولُ قال: سمِعْتُه يقولُ كذا وكذا فأخبَرْتُهم بما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقام عندَ ذلك أبو مسعودٍ عُروةُ بنُ مسعودٍ الثَّقفيُّ فقال: يا قومِ ألَسْتُم بالولدِ ؟ قالوا: بلى قال: ألَسْتُ بالوالدِ ؟ قالوا: بلى قال: فهل تتَّهموني ؟ قالوا: لا قال: ألَسْتُم تعلَمون أنّي استنفَرْتُ أهلَ عُكاظٍ فلمَّا بلَّحوا عليَّ جِئْتُكم بأهلي وولَدي ومَن أطاعني ؟ قالوا: بلى قال: فإنَّ هذا امروٌ عرَض عليكم خُطَّةَ رُشدٍ فاقبَلوها ودعوني آتِه قالوا: ائتِه فأتاه قال: فجعَل يُكلِّمُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نحوًا مِن قولِه لبُدَيْلِ بنِ وَرْقاءَ فقال عروةُ بنُ مسعودٍ عندَ ذلك يا محمَّدُ أرأَيْتَ إنِ استأصَلْتَ قومَك هل سمِعْتَ أحدًا مِن العربِ

اجتاح أصلَه قبْلَك وإنْ تكُنِ الأخرى فواللهِ إنّي أرى وجوهًا وأرى أشوابًا مِن النَّاسِ خُلَقاءَ أنْ يفِرُّوا ويدَعوك فقال أبو بكرٍ الصِّدّيقُ رضوانُ اللهِ عليه: امصُصْ ببَظْرِ اللَّاتِ أنحنُ نفِرُّ وندَعُه ؟ فقال أبو مسعودٍ: مَن هذا ؟ قالوا: أبو بكرِ بنُ أبي قُحافةَ فقال: أمَا والَّذي نفسي بيدِه لولا يدٌ كانت لك عندي لم أَجْزِك بها لأجَبْتُك وجعَل يُكلِّمُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فكلَّما كلَّمه أخَذ بلِحيتِه والمغيرةُ بنُ شُعبةَ الثَّقفيُّ قائمٌ على رأسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وعليه السَّيفُ والمِغفَرُ فكلَّما أهوى عُروةُ بيدِه إلى لحيةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ضرَب يدَه بنَعْلِ السَّيفِ، وقال: أخِّرْ يدَك عن لحيةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فرفَع عروةُ رأسَه وقال: مَن هذا ؟ فقالوا: المغيرةُ بنُ شُعبةَ الثَّقفيُّ فقال: أيْ غُدَرُ، أولَسْتُ أسعى في غَدرَتِك وكان المغيرةُ بنُ شُعبةَ صحِب قومًا في الجاهليَّةِ فقتَلهم وأخَذ أموالَهم ثمَّ جاء فأسلَم فقال له النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (أمَّا الإسلامُ فأقبَلُ وأمَّا المالُ فلَسْتُ منه في شيءٍ) قال: ثمَّ إنَّ عروةَ جعَل يرمُقُ صحابةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعينِه فواللهِ ما يتنخَّمُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نُخامةً إلَّا وقَعتْ في كفِّ رجُلٍ منهم فدلَك بها وجهَه وجِلدَه وإذا أمَرهم انقادوا لأمرِه وإذا توضَّأ كادوا يقتتلون على وَضوئِه وإذا تكلَّم خفَضوا أصواتَهم عندَه وما يُحِدُّون إليه النَّظرَ تعظيمًا له فرجَع عروةُ بنُ مسعودٍ إلى أصحابِه فقال: أيْ قومِ واللهِ لقد وفَدْتُ إلى الملوكِ ووفَدْتُ إلى كسرى وقيصرَ والنَّجاشيِّ واللهِ ما رأَيْتُ مِلِكًا قطُّ يُعظِّمُه أصحابُه ما يُعظِّمُ أصحابُ محمَّدٍ محمَّدًا ووالله إنْ يتنخَّمُ نُخامةً إلَّا وقَعت في كفِّ رجُلٍ منهم فدلَك بها وجهَه وجِلْدَه وإذا أمَرهم ابتدَروا أمرَه وإذا توضَّأ اقتتلوا على وَضوئِه وإذا تكلَّم خفَضوا أصواتَهم عندَه وما يُحِدُّون إليه النَّظرَ تعظيمًا له وإنَّه قد عرَض عليكم خُطَّةَ رُشدٍ فاقبَلوها فقال رجُلٌ مِن بني كِنانةَ دعوني آتِه فلمَّا أشرَف على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هذا فلانٌ مِن قومٍ يُعظِّمون البُدنَ فابعَثوها له قال: فبُعِثَتْ واستقبَله القومُ يُلَبُّون فلمَّا رأى ذلك قال: سُبحانَ اللهِ لا ينبغي لهؤلاء أنْ يُصَدُّوا عن البيتِ فلمَّا رجَع إلى أصحابِه قال: رأَيْتُ البُدْنَ قد قُلِّدتْ وأُشعِرَتْ فما أرى أنْ يُصَدُّوا عن البيتِ فقام رجُلٌ منهم يُقالُ له: مِكرَزٌ فقال: دعوني آتِهِ فقالوا: ائتِه فلمَّا أشرَف عليهم قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (هذا مِكرَزٌ وهو رجُلٌ فاجرٌ) فجعَل يُكلِّمُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فبينما هو يُكلِّمُه إذ جاءه سُهيلُ بنُ عمرٍو قال مَعْمَرٌ: فأخبَرني أيُّوبُ السَّخْتِيانيُّ عن عِكرمةَ قال: فلمَّا جاء سُهيلٌ قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (هذا سُهيلٌ قد سهَّل اللهُ لكم أمرَكم) قال مَعْمَرٌ في حديثِه عن الزُّهريِّ عن عُروةَ عن المِسوَرِ ومَروانَ: فلمَّا جاء سُهيلٌ قال: هاتِ اكتُبْ بينَنا وبينَكم كتابًا فدعا الكاتبَ فقال: اكتُبْ بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ فقال سُهيلٌ: أمَّا الرَّحمنُ فلا أدري واللهِ ما هو ولكِنِ اكتُبْ باسمِك اللَّهمَّ ثمَّ قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (اكتُبْ هذا ما قاضى عليه محمَّدٌ رسولُ اللهِ) فقال سُهيلُ بنُ عمرٍو: لو كنَّا نعلَمُ أنَّك رسولُ اللهِ ما صدَدْناك عن البيتِ ولا قاتَلْناك ولكِنِ اكتُبْ: محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (واللهِ إنِّي لَرسولُ اللهِ وإنْ كذَّبْتُموني اكتُبْ محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ) قال الزُّهريُّ: وذلك لقولِه: لا يسأَلوني خُطَّةً يُعظِّمون فيها حُرماتِ اللهِ إلَّا أعطَيْتُهم إيَّاها وقال في حديثِه عن عُروةَ عنِ المِسوَرِ ومَروانَ فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (على أنْ تُخَلُّوا بينَنا وبيْنَ البيتِ فنطوفَ به فقال سُهيلُ بنُ عمرٍو: إنَّه لا يتحدَّثُ العربُ أنَّا أُخِذْنا

ضُغطةً، ولكِنْ لك مِن العامِ المقبِلِ، فكتَب، فقال سُهيلُ بنُ عمرٍو: على أنَّه لا يأتيك منَّا رجُلٌ وإنْ كان على دِينِك أو يُريدُ دينَك إلَّا ردَدْتَه إلينا فقال المسلِمونَ :سُبحانَ اللهِ كيف يُرَدُّ إلى المشركينَ وقد جاء مسلِمًا فبينما هم على ذلك إذ جاء أبو جَنْدَلِ بنُ سُهيلِ بنِ عمرٍو يرسُفُ في قيودِه قد خرَج مِن أسفلِ مكَّةَ حتى رمى بنفسِه بيْنَ المسلمينَ فقال سُهيلُ بنُ عمرٍو: يا محمَّدُ هذا أوَّلُ مَن نُقاضيك عليه أنْ تَرُدَّه إليَّ فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّا لم نُمضِ الكتابَ بعدُ فقال: واللهِ لا أُصالِحُك على شيءٍ أبدًا فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (فأَجِزْه لي) فقال: ما أنا بمُجيزِه لك قال: فافعَلْ قال: ما أنا بفاعلٍ قال مِكرَزٌ: بل قد أجَزْناه لك فقال أبو جَنْدَلِ بنُ سُهيلِ بنِ عمرٍو: يا معشرَ المسلمينَ أُرَدُّ إلى المشركين وقد جِئْتُ مسلِمًا ألا ترَوْنَ إلى ما قد لقيتُ وكان قد عُذِّب عذابًا شديدًا في اللهِ - فقال عمرُ بنُ الخطَّابِ رضوانُ اللهِ عليه: واللهِ ما شكَكْتُ منذُ أسلَمْتُ إلَّا يومَئذٍ فأتَيْتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقُلْتُ: ألَسْتَ رسولَ اللهِ حقًّا ؟ قال: (بلى) قُلْتُ: ألَسْنا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطلِ ؟ قال: (بلى) قُلْتُ: فلِمَ نُعطي الدَّنيَّةَ في دِينِنا إذًا ؟ قال: (إنِّي رسولُ اللهِ ولَسْتُ أعصي ربِّي وهو ناصري) قُلْتُ: أوليسَ كُنْتَ تُحدِّثُنا أنَّا سنأتي البيتَ فنطوفُ به ؟ قال (بلى فخبَّرْتُك أنَّك تأتيه العامَ؟) قال: لا قال: (فإنَّك تأتيه فتطوفُ به قال: فأتَيْتُ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ رضوانُ اللهِ عليه فقُلْتُ: يا أبا بكرٍ أليس هذا نبيَّ اللهِ حقًّا ؟ قال: (بلى) قُلْتُ: أولَسْنا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطلِ ؟ قال: (بلى) قُلْتُ: فلِمَ نُعطي الدَّنيَّةَ في دِينِنا إذًا ؟ قال: أيُّها الرَّجلُ إنَّه رسولُ اللهِ وليس يعصي ربَّه وهو ناصرُه فاستمسِكْ بغَرْزِه حتَّى تموتَ فواللهِ إنَّه على الحقِّ قُلْتُ: أوليس كان يُحدِّثُنا أنَّا سنأتي البيتَ ونطوفُ به ؟ قال: بلى قال فأخبَرك أنَّا نأتيه العامَ؟ قُلْتُ: لا قال: فإنَّك آتيه وتطوفُ به قال عمرُ بنُ الخطَّابِ رضوانُ اللهِ عليه فعمِلْتُ في ذلك أعمالًا - يعني في نقضِ الصَّحيفةِ - فلمَّا فرَغ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الكتابِ أمَر رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أصحابَه فقال: (انحَروا الهَدْيَ واحلِقوا) قال: فواللهِ ما قام رجُلٌ منهم رجاءَ أنْ يُحدِثَ اللهُ أمرًا فلمَّا لم يقُمْ أحَدٌ منهم قام رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فدخَل على أمِّ سلَمةَ فقال: ما لقيتُ مِن النَّاسِ قالت أمُّ سلَمةَ: أوَتُحِبُّ ذاك، اخرُجْ ولا تُكلِّمَنَّ أحدًا منهم كلمةً حتَّى تنحَرَ بُدنَكَ وتدعوَ حالقَك فقام النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فخرَج ولم يُكلِّمْ أحدًا منهم حتَّى نحَر بُدْنَه ثمَّ دعا حالقَه فحلَقه فلمَّا رأى ذلك النَّاسُ جعَل بعضُهم يحلِقُ بعضًا حتَّى كاد بعضُهم يقتُلُ بعضًا قال: ثمَّ جاء نِسوةٌ مؤمناتٌ فأنزَل اللهُ تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ} [الممتحنة: 10] إلى آخِرِ الآيةِ قال: فطلَّق عمرُ رضوانُ اللهِ عليه امرأتينِ كانتا له في الشِّركِ فتزوَّج إحداهما معاويةُ بنُ أبي سُفيانَ والأخرى صفوانُ بنُ أميَّةَ قال: ثمَّ رجَع صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى المدينةِ فجاءه أبو بَصيرٍ رجُلٌ مِن قريشٍ وهو مسلِمٌ فأرسَلوا في طلبِه رجُلينِ وقالوا: العهدَ الَّذي جعَلْتَ لنا فدفَعه إلى الرَّجُلينِ فخرَجا حتَّى بلَغا به ذا الحليفةِ فنزَلوا يأكُلون مِن تمرٍ لهم فقال أبو بَصيرٍ لأحدِ الرَّجُلينِ: واللهِ لَأرى سيفَك هذا يا فلانُ جيِّدًا فقال: أجَلْ واللهِ إنَّه لَجيِّدٌ لقد جرَّبْتُ به ثمَّ جرَّبْتُ فقال أبو بَصيرٍ: أَرِني أنظُرْ إليه فأمكَنه منه فضرَبه حتَّى برَد وفرَّ الآخَرُ حتَّى أتى المدينةَ فدخَل المسجدَ يعدو فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لقد رأى هذا ذُعْرًا فلمَّا انتهى إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: قُتِل واللهِ صاحبي وإنِّي لَمقتولٌ فجاء أبو بَصيرٍ

فقال: يا نبيَّ اللهِ قد واللهِ أوفى اللهُ ذمَّتَك قد ردَدْتَني إليهم ثمَّ أنجاني اللهُ منهم فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ويلُ امِّه لو كان معه أحَدٌ فلمَّا سمِع بذلك عرَف أنَّه سيرُدُّه إليهم مرَّةً أخرى فخرَج حتَّى أتى سِيفَ البحرِ قال: وتفلَّت منهم أبو جَنْدَلِ بنُ سُهيلِ بنِ عمرٍو فلحِق بأبي بَصيرٍ فجعَل لا يخرُجُ مِن قريشٍ رجُلٌ أسلَم إلَّا لحِق بأبي بَصيرٍ حتَّى اجتمَعت منهم عصابةٌ قال: فواللهِ ما يسمَعون بِعِيرٍ خرَجتْ لقريشٍ إلى الشَّامِ إلَّا اعترَضوا لها فقتَلوهم وأخَذوا أموالَهم فأرسَلتْ قريشٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تُناشِدُه اللهَ والرَّحِمَ لَمَا أرسَل إليهم ممَّن أتاه فهو آمِنٌ فأرسَل النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إليهم فأنزَل اللهُ جلَّ وعلا: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ} [الفتح: 24] حتَّى بلَغ {حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ} [الفتح: 26] وكانت حميَّتُهم أنَّهم لم يُقِرُّوا أنَّه نبيُّ اللهِ ولم يُقِرُّوا ببِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

*(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (1) لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (2) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (3) هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4) لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (5) وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (6) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (7))

هذه الافتتاحية المهيبة لـ سورة الفتح هي إحدى أروع تجليّات القرآن الكريم؛ نزلت في طريق عودة المسلمين من "صلح الحديبية" (سنة 6 هـ)، ذاك الصلح الذي رآه بعض الصحابة ضيماً، فجاء القرآن ليسمّيه "فتحاً مبيناً".

البعد السياقي والمقاصدي (أرضية النزول ومآلاتها): يرى ابن عاشور – رحمه الله - أن المقصد الأسمى للسورة هو "الامتنان على الرسول ﷺ وعلى المؤمنين بوشوك تيسير ما استصعبوه من فتح مكة، والثناء على صدق إيمانهم".

قلت: بل وبتحقق ما سماه فتحاً مبيناً، إذ كان صلح الحديبية يمثل اعتراف قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم والجلوس معه على طاولة الصلح والتفاوض، والذي يعني اعتراف بقية العرب، لأنهم تبع لقريش.

قلب الموازين: في طريق العودة، كان الوجوم يخيم على المسلمين بسبب شروط الصلح المجحفة ظاهرياً (مثل رد من جاء مسلماً). هنا تنزل الآيات لتخاطب النبي ﷺ بصيغة الماضي المؤكد (إِنَّا فَتَحْنَا لك فتحاً مبيناً) لتقول لهم: إنّ الموازين عند

1 - أخرجه البخاري (2732) بلفظ مقارب، وأبو داود (1754) ببعضه، والنسائي(2771)

الله تختلف؛ فالصلح هو البداية الحقيقية للاعتراف بكيان الدولة الإسلامية، وهو الذي كفّ الأيدي ليفرغ الناس للدعوة، فدخل في الإسلام بعد الصلح أضعاف من دخلوه قبله.

الظلال النفسية: يصور سيد قطب (في ظلال القرآن) روعة المشهد النفسي، فبعد التوتر والقلق الشديدين اللذين أصابا الجماعة المسلمة خوفاً على دينهم، تنزل الآيات كالبلسم، تفيض بالسلام والأمن، وتبدل الخوف سكينة، والضيق نصراً عزيزاً.

القراءة اللسانية والنحوية: تتكامل البنية النحوية هنا لخدمة التدفق الدلالي عبر روابط السببية والغائية:

زمن الفعل (فَتَحْنَا): فعل ماضٍ، يفيد التحقيق والثبوت. يعلق البقاعي في (نظم الدرر) أن التعبير بالماضي عن أمر مستقبل (الفتح التام لمكة وللبلاد) هو لإفادة أنه قضاء مبرم وصائر لا محالة، فكأنه وقع وانتهى.

قلت: والصواب أنّ صلح الحديبية هو الفتح المبين، والله أعلم، لما فيه اعتراف قريش بدولة المسلمين الناشئة الفتية والجلوس معهم على طاولة التفاوض.

اللامات التعليلية المتتابعة: نجد شبكة من "لام التعليل" ترسم خارطة النتائج:

(لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ) : متعلق بـ (فَتَحْنَا).

(لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا): متعلق بـ (أَنزَلَ السَّكِينَةَ)، (يُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ)، متعلق بـ (وَلِلَّهِ جُنُودُ...) أو بـ (فَتَحْنَا).

هذا الترابط النحوي يربط حركة التاريخ والأحداث الأرضية (الفتح والصلح) بالغايات الإلهية الأخروية والنفسية.

تقديم وتأخير النعم: في قوله (وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ)، قُدّم إتمام النعمة (التي منها الفتح وإعلاء الدين) على الهداية للصراط المستقيم (بمعنى تثبيتك عليه وإظهار معالمه بأحكام السلم والحرب)، لأن السياق سياق امتنان بظهور الدعوة.

القراءة البلاغية والأدبية: تتجلى بلاغة الآيات في اختيار الألفاظ، والإيجاز، والمقابلة، والتكرار لحكم عظيمة:

تأكيد المفعول المطلق: (فَتْحًا مُّبِينًا)، (نَصْرًا عَزِيزًا). لم يقل فتحنا ونصرنا فقط، بل جاء بالمصدر الموصوف بالمبالغة والتأكيد، ومعنى (مبيناً) أي: ظاهراً مكشوفاً لا خفاء فيه، ومعنى (عزيزاً): قوياً غالباً لا ذلّ معه، وذلك ليرفع معنويات المسلمين ويزيل أي وهم بأن الصلح كان انكساراً.

التفات التشريف وعلو المكانة: الافتتاح بـ (إِنَّا) (ضمير العظمة) مسنداً إلى الفتح لتعظيم شأن هذا الفتح، ثم قوله (لَكَ) بتخصيص النبي ﷺ بالخطاب تكريماً له،

وتطييباً لقلبه بعد أن تحمّل ثقل المفاوضات، وثقل امتعاض أصحابه بشروط الصلح، صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم.

بلاغة السكينة والوقار: (هو الذي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ)؛ السكينة: هي الطمأنينة والثبات، فهذه يقول البلاغيون: استعارة مكنية حيث شُبهت السكينة بشيء مادي ينزل ليستقر في وعاء وهو "القلوب"، وقد اختيار "قلوب" لأنّ القلب محل الاضطراب والخوف، والإنزال يوحي بعلو مصدر هذه الطمأنينة.

المقابلة والموازنة: توازن دقيق في الخواتيم بين مصير المؤمنين والمؤمنات (جنات، تكفير سيئات، فوز عظيم) ومصير المنافقين والمشركين (عذاب، غضب، لعنة، جهنم، ساءت مصيراً).

أسرار المغفرة والفتح: استشكل البعض: كيف يكون الفتح سبباً لمغفرة الذنوب (لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ)؟

ويجيب ابن تيمية و تلميذه ابن القيم هذا بلمحة مشعة: بأنّ الرابط هو أنّ "الفتح والنصر سبب لطاعات عظيمة، فإنه بسببه علا الإسلام، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وقام رسول الله ﷺ وبالمؤمنين من عبادات الله، والجهاد، والدعوة، والصبر ما لم يكن قبل ذلك. وعظم الطاعة يوجب مغفرة الذنوب؛ فجُعل غاية الفتح مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، لما ترتب على الفتح من الأعمال التي تغفر بها الذنوب".

كما أضاف ابن القيم أنّ مغفرة ذنوب القائد (النبي ﷺ) هي أمان لأمته، وإعلان لتمام الرضا، فلا يُنصر المرء نصراً عزيزاً إلاّ إذا رُفع حِمله وكُفي همه.

التناسب القرآني: يبرز البقاعي سر تكرار آية (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) مرتين:

المرة الأولى: جاءت بعد ذكر السكينة وزيادة الإيمان، وختمت بـ (وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)؛ لأن السياق سياق تدبير داخلي لنفوس المؤمنين ورحمة بهم، فاقتضى علم الله بحالهم وحكمته في تربيتهم.

المرة الثانية: جاءت بعد الوعيد بالعذاب للمنافقين والمشركين، وختمت بـ (وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)؛ لأن السياق سياق انتقام وقهر للأعداء، فاقتضى صفة "العزة" (القوة والغلبة) مع الحكمة في إنزال العقوبة.

الرؤية الحضارية والتربوية: يلتفت محمد قطب في فقه التربية الإسلامية إلى قوله تعالى: (لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ)؛ ليؤكد أن الإيمان ليس حالة استاتيكية (ثابتة)، بل هو كائن ينمو ويزيد بالمحن والابتلاءات والصبر عليها. إن صلح الحديبية كان "امتحاناً تربوياً" زلزل المشاعر، فلما استسلم المسلمون لأمر الله ورسوله ﷺ، أنزل

الله السكينة فزاد إيمانهم صقلاً وعمقاً، وهيأتهم هذه التربية النفسية لوراثة الأرض وفتح مكة ومواجهة الإمبراطوريات الكبرى.

خلاصة: النص البديع ينقلنا من مشهد أرضي بدا في عيون الناس "مكروهاً وضيقاً" (صلح فيه تنازلات)، إلى أفق سماوي يكشف أن هذا الحدث محفوف بـ العظمة الإلهية، مدار بإدارة جنود السماوات والأرض، غايته تزكية نفوس المؤمنين، ومآله الفوز العظيم والنصر العزيز، لتظل الآيات دستوراً ربانياً يعلم الأمة أن الفتح الحقيقي يبدأ من السكينة في القلوب والاستسلام لحكمة علام الغيوب.

*(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (8) لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا(9) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (10) سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (11) بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا (12) وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (13) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (14) سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا(15) قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (16)لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا(17))

تستمر السورة في مدّ ظلالها الوارفة، لتنتقل من جلال الافتتاح والامتنان بالفتح، إلى بناء العقيدة التنظيمية للمجتمع المسلم؛ حيث ترسم هذه الآيات معالم الرابطة المقدسة بين القيادة والقاعدة، وتعرّي في المقابل أدواء النفاق النفسية والاجتماعية التي ظهرت في محطة "الحديبية" الحرجة.

البعد السياقي والمقاصدي (محنة الغربلة والتمحيص): يرى ابن عاشور أن المقصد الأساسي في هذا المقطع هو "بيان كرامة الرسول ﷺ ومكانة بيعته، وتوبيخ الذين تخلّفوا عن الخروج معه من الأعراب، وفضح معاذيرهم الكاذبة".

سياق الفضح التربوي: خرج النبي ﷺ في عمرة الحديبية، واستنفر الأعراب من حول المدينة (جهينة ومزينة وأشجع)، فظنوا أن المسلمين لن يعودوا، وأن قريشاً

ستبيدهم فتخلّفوا حباً في الدعة وخوفاً من الموت، فلما عاد المسلمون بالفتح والصلح والمغانم، سارع هؤلاء بالاعتذار.

القراءة اللسانية والنحوية: تتجلى مرونة اللسان العربي في التعبير عن أدق خلجات النفس وتوزيع الحقوق عبر البنية النحوية:

تعدد الحال والالتفات للتشريف: في قوله (إنّا أرسلناك شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)، تعرب هذه الأوصاف أحوالاً ملازمة للرسالة.

ثم يأتي الالتفات من الخطاب الفردي للنبي ﷺ إلى الخطاب الجمعي للأمة: (لِّتُؤْمِنُوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحون بكرة وأصيلا)، ليربط علة الإرسال بتكليف الأمة فوراً.

توزيع الضمائر في آية الحقوق والمقامات: قوله تعالى: (وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسبِّحُوهُ)؛ هذا التتابع أثار لفتة نحوية بيانية عظيمة، حيث يعود الضمير في (تعزروه وتوقروه) إلى الرسول ﷺ (لأن التعزير النصر والتوقير الإجلال وهو لائق بالبشر)،

بينما يعود الضمير في (تسبحوه) إلى الله جل وعلا (لأن التسبيح تنزيه لا يكون إلا لله). هذا الاندماج في سياق واحد دون فصل، يعكس شدة اتصال التوقير للرسول بتسبيح المرسِل.

*(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا(10))

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: بايعْنَا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تحتَ الشجرةِ على أنْ لا نفرَّ ولمْ نبايعْهُ على الموتِ فأنسيناها يومَ حنينٍ حتى نُودينا يا أصحابَ الشجرةِ فرَجعوا [1].

وعن معقل بن يسار رضي الله قال: لقد رَأيتُني يَومَ الشَّجَرةِ، والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُبايِعُ النَّاسَ، وأنا رافِعٌ غُصنًا مِن أغصانِها عن رَأسِه، ونَحنُ أربَعَ عَشرةَ مِائةً، قال: لم نُبايِعْه على المَوتِ، ولَكِن بايَعناه على أن لا نَفِرَّ [2].

والسَّببُ في هذه البَيعةِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان قدْ خَرَج بأصحابِهِ رَضيَ اللهُ عنهم مِن المدينةِ إلى مكَّةَ يُريدون العُمرةَ، فمَنَعَتْهم قُرَيشٌ مِن دُخولِ مكَّةَ، فبَعَثَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عُثمانَ بنَ عفَّانَ رَضيَ اللهُ عنه إلى مَكَّةَ بكِتابٍ يُخبِرُ به أشْرافَ قُرَيشٍ بأنَّه لم يَأتِ إلَّا زائرًا لِلبَيتِ ومُعَظِّمًا لِحُرْمَتِه، وتَأخَّرَ عُثمانُ رَضيَ

1 - أخرجه مسلمٌ (1856) والترمذي (1591)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (11445) جميعهم باختلاف يسير، قال في الدرر السنية: لم أجد من قوله فأنسيناها

2 - أخرجه مسلمٌ (1858) الروياني (1282) واللفظ له دون قوله ((ونحن أربع عشرة مئة))، وابن حبان (4876) باختلاف يسير، وأحمد (20293) بنحوه.

اللهُ عنه في الرُّجوعِ، فأُشيعَ بيْنَ المسْلِمين أنَّه قدْ قُتِلُ في مكَّةَ حتَّى بَلَغَ ذلك النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ودَعا النَّاسَ لِلبَيعةِ، فبايَعَه بَعضُهم على المَوتِ، وبَعضُهم على ألَّا يَفِرُّوا، وتُسَمَّى هذه البَيعةُ بَيعةَ الرِّضوانِ؛ لِقَولِه تَعالَى: (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ) [الفتح: 18]، ولكنَّ اللهَ سلَّمَ ولم يُقتَلُ عُثمانُ رَضيَ اللهُ عنه، وأرْسَلَتْ قُرَيشٌ، فعَقَدَت صُلحَ الحُدَيبيةِ مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وكان ذلك سَنةَ سِتٍّ مِنَ الهِجرةِ.

التعبير بـ (عَلَيْهُ) بضم الهاء بدلاً من الكسر: في قراءة حفص (بِمَا عاهدَ عَلَيْهُ اللَّهَ) بضم الهاء في (عليهُ). يرى أهل اللسان أن الضم هو الأصل، وجاء هنا تفخيماً للميثاق والعهد الغليظ مع الله، لتتناسب الجزالة اللفظية مع جلالة الموقف (بيعة الرضوان).

الإضراب التدرجي بـ (بَلْ): تكرر حرف الإضراب الإبطالي (بَلْ) أربع مرات في سياق الأعراب: (بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)، (بَلْ ظَنَنتُمْ)، (فسيقولون بَلْ تَحْسُدُونَنَا)، (بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا) النحو هنا يخدم كشف الكذب؛ فكلما ساقوا عذراً، ضرب الله عنه وعرّى ما تحته، وصولاً إلى عمق نفوسهم الجبانة.

القراءة البلاغية والأدبية: قوله سبحانه: {يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ}؛ صورة بيانية بليغة تمثّل المشهد الحسّي لـ "بيعة الرضوان" حيث بسط النبي صلى الله عليه وسلم يده ليبايعوه، كما في الحديث أعلاه، وكانت أيدي الصحابة تبايع النبي صلى الله عليه وسلم، ووضع النبي ﷺ يده الأخرى بدل يد عثمان بن عفان رضي الله عنه. صِيغَة هذه الآية يوحي بأن عقد البيعة ليس أرضياً، بل هو عهد مباشر مع ملك الملوك.

قال شيخنا العثيمين رحمه الله في قوله تعالى: (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) إنما يبايعون الله لأنهم يبايعون رسوله صلى الله عليه وعلى آله سلم فمبايعة الرسول مبايعة للمرسل.

ثم قال تعالى: " (يد الله فوق أيديهم)، وهذه أيضاً على ظاهرها وحقيقتها فإن يد الله فوق أيدي المبايعين لأن يده من صفاته وهو سبحانه فوقهم على عرشه فكانت يده فوق أيديهم " وهذا من باب التوكيد على أن مبايعة الرسول عليه الصلاة والسلام مبايعة لله، فيد الله فوق أيديهم " وهذا ظاهر اللفظ وحقيقته وهو لتوكيد كون مبايعة النبي صلى الله عليه وسلم مبايعة لله عز وجل ولا يلزم من أن تكون يد الله جل وعلا مباشرة لأيديهم وإن كانت فوق أيديهم " فلا يلزم أن تكون مباشرة بل ويستحيل أن يتكون مباشرة في هذا الموضع لماذا؟ لأن الله تعالى فوق كل شيء والمبايعون في الأرض فلا يمكن أن تكون يد الله الحقيقية مباشرة لأيدينا.

قال -رحمه الله-: "ألا ترى أنه يقال: السماء فوقنا مع أنها مباينة لنا بعيدة عنا فيد الله عز وجل فوق أيدي المبايعين لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع مباينته تعالى

لخلقه وعلوه عليهم " وهذا تخريج ظاهر أن يد الله فوق أيديهم لأنه فوقهم ويده من صفاته ويكون في هذا توكيد هذه المبايعة أنهم كأنما بايعوا يد الله عز وجل .

" ولا يمكن لأحد أنّ يفهم أن المراد بقوله سبحانه: (يد الله فوق أيديهم) أنّ يد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولا أنْ يدعي أن ذلك ظاهر اللفظ، لأنّ الله أضاف اليد إلى نفسه، ووصفها بأنها فوق أيديهم، ويد النبي صلى الله عليه وسلم عند مبايعة الصحابة لم تكن فوق أيديهم بل كان يبسطها إليهم فيمسك بأيديهم كالمصافح لهم فيده مع أيديهم لا فوق أيديهم، انتهى[1].

*(سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا، بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا)

الجناس المعنوي والتقابل النفسي: بين (شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا) وبين قوله (إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا). الأعراب اعتذروا بالأهل كمشغلة، فكشف الله أنهم تخلفوا خوفاً من ألاّ ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً! فكان التناقض بين عذر "الرعاية" وحقيقة "الرعب".

الاستعارة المكنية والتهكم البديع: (وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا)؛ البور: هي الأرض الميتة التي لا تنبت خيراً، فشبه نفوسهم الخاوية من الإيمان بالأرض الخراب الميتة. وفي قوله تعالى حكاية عنهم: (ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ) إيجاز رائع يعكس مظهر الانتهازية والهرولة خلف المكسب السريع بعد زوال الخطر.

بلاغة الحصر والتوكيد: (فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ)؛ استخدام (إنما) للحصر والتوكيد؛ ليؤكد أن ضرر الغدر بالعهد لا يتجاوز صاحبه، ولا يضر عزة الدولة الإسلامية شيئاً.

مفهوم الطاعة والبيعة: يقف ابن تيمية عند قوله تعالى: (وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ) ليرسخ تلازم المحبة والنصرة:

"التعزير هو النصرة والمنع والتعظيم، والتوقير هو الإجلال والاضطلاع بحقه. والدين قوامُه هذان الأمران: تعظيم أمر الله ورسوله، والقيام بنصرة هذا الدين. فمن عقَد البيعة ثم نكث، فقد عرّض نفسه للمقت، لأن طاعة الرسول هي عين طاعة الله (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ)".

ويضيف ابن القيم لفتة في قوله تعالى: (وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ)؛ أن التزيين هنا هو "العقوبة النفسية" التي عاقب الله بها المنافقين؛ فلما تركوا طاعة الرسول ﷺ،

1 - انظر العثيمين: شرح القواعد المثلى (؟؟؟؟).

عُوقبوا بأن رأوا الجبن والقعود مصلحة وحكمة، وهذا أشد أنواع الخذلان: أن يرى الإنسان هلاكه وذُلّه زيناً حسناً.

ولعل الشاعر أراد هذه المعنى، أو اقترب منه حين قال:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا****وحسب المنايا أن يكن أمانيا

التناسب والنظم: يحلل البقاعي فقه ترتيب الآيات: لِمَ جاءت آية الأعذار والأعاصير بعد آية البيعة مباشرة؟

لأنه لما ذكر الصادقين الذين بايعوا وبذلوا أنفسهم تحت الشجرة حتى صارت يد الله فوق أيديهم، تعيّن ذكر المخلفين الكاذبين ليظهر التباين الصارخ في المجتمع؛ فبينما يبيع المؤمن نفسه لله، يرتع الأعرابي حول ماله وولده.

*(قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا).

المقصد التشريعي والحركي: يسلط سيد قطب الضوء على فكرة "الصف الخالص"؛ فالحديبية كانت مصفاة وغربلة كشفت طينة النفوس، والآيات تهدف إلى صيانة المجتمع المسلم من "الانتهازية"؛ فلا يجوز للمتخلفين وقت الشدة أن يشاركوا في المغانم وقت الرخاء (مغانم خيبر) إلاّ بعد صهرهم في ابتلاء جديد يُثبت صدقهم (سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ).

وعند قوله: (لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ...)؛ يرى البقاعي أنه لما شدد سبحانه وتعالى في عقوبة المتخلفين، ووصفهم بالبور والكفر، فتح باب الرحمة لأصحاب الأعذار الحقيقية، لئلا تنكسر قلوبهم، فبيّن أن الميزان هو "الاستطاعة والقلب"، وليس مجرد الحركة البدنية.

فقه النفس والحركة: في ظلال هذه الآيات، يحلل محمد قطب البنية النفسية للأعراب (أهل البادية الذين لم تصقلهم التربية الإيمانية العميقة في مكة والمدينة):

"إنهم يتحركون بدافع المصلحة القريبة والأثرة؛ فالمال والأهل عندهم صنم يحرك مواقفهم. إنهم يقيسون الأمور بمقاييس مادية بحتة (الكثرة والقوة لقريش)، ولم يدركوا أن في المعركة قوة غيبية تُدير الأحداث".

أما سيد قطب، فيرسم مشهد الفضيحة المعاصرة والمتجددة في كل عصر؛ حيث يقول:

"إن الكلمات تخرج من أفواههم باردة كاذبة {يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ}، والقرآن يواجه هذا الالتواء بالصدمة المباشرة وبمنطق القوة الفوقية {قُلْ فَمَن

يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا}. إنه منهج التربية بالحسم، لقطع دابر التذبذب في الصف المسلم".

خلاصة: تضعنا الآيات أمام مفهوم حركي حاسم للولاء؛ فالإسلام ليس كلمات تُقال بالألسنة عند الرخاء، بل هو بيعة غليظة تُختبر عند الشدائد. تُقسم الآيات المجتمع إلى ثلاثة أصناف:

مؤمن بايع بيعة الموت (يد الله فوق يده).

منافق معلول بالدنيا (شغلته أمواله وأهلُه، وحبسه سوء ظنه بالله).

معذور مريض رحِم الله ضعفه (لكنه صادق بقلبه).

وبهذا، يتطهر الصف المسلم ويتماسك، استعداداً لقيادة البشرية وفتح مغانم الدنيا والآخرة.

*(لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (19) وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (20) وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (21) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (22) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا(23) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (24) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (25) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا(26))

هذه الآيات من سورة الفتح تمثل ذروة التوثيق الإلهي لحدث من أخطر منعطفات السيرة النبوية: صلح الحديبية وبيعة الرضوان.

السياق والمقاصد العامة (المحور السياقي والمقاصدي): يرى ابن عاشور أن المقصد الأسمى لسورة الفتح هو التوطئة النفسية والسياسية للمرحلة الانتقالية من "الدفاع والاضطهاد" إلى "التمكين والانتشار".

أما سيد قطب فيركز على فكرة "التربية الإلهية للجيل الفريد"، حيث يرى أن المحور المقاصدي هنا هو صياغة القلوب. الصلح في ظاهره كان يحمل شروطاً

مجحفة أغضبت الصحابة (كردّ من جاء مسلماً)، لكن المقصد الإلهي كان يربيهم على التجريد الكامل والتسليم للقيادة النبوية.

مقصد الطمأنينة (السكينة): تكررت كلمة "السكينة" في المقاطع (فأنزل السكينة عليهم / فأنزل الله سكينته). المقصد هنا هو إحداث توازن نفسي مقابل "حمية الجاهلية" التي تملأ قلوب المشركين.

مقصد العصمة وحقن الدماء: كشف النص عن مقصد مقطوع به لم يكن يعلمه الصحابة، وهو وجود مؤمنين ومؤمنات مستضعفين داخل مكة (ولولا رجال مؤمنون...). فكان حقن دمائهم مقصداً تشريعياً غيبياً تقدم على شهوة النصر العسكري السريع.

النظم والمناسبة: تميز البقاعي في (نظم الدرر) بتتبع العلاقات الرابطة بين الآيات، حيث نلاحظ هنا هندسة مذهلة في المقابلة والموازنة:

المقابلة النفسية: يقابل النظم بين باطن المؤمنين وباطن الكافرين. في قلوب المؤمنين (فعلم ما في قلوبهم) -> النتيجة: (السكينة). وفي قلوب الكافرين (إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحَمية) -> النتيجة: (حمية الجاهلية) وهي الطيش والاضطراب.

المقابلة الفعلية (كف الأيدي): تكرر امتنان الله بكف الأيدي في موضعين بأسلوبين مختلفين:

(وكف أيدي الناس عنكم): سياقها الامتنان بالأمن وقت السفر والصلح ليتفرغوا لبناء الدولة وتذوق حلاوة النصر القريب (في غزوة خيبر).

(وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة): سياقها بيان القدرة الإلهية والمكرمة العظيمة، حيث تداخل الجيشان وكاد يقع القتال ببطن مكة بعد أن أظفر الله المؤمنين عليهم، لكن الله حجز بين الطرفين لحكمة علمها.

الأسرار البلاغية والبيانية: امتازت هذه الآيات بفيض من الاستعارات والكنايات والالتفاتات التي استنبط ابن القيم وغيره أسرارها:

التعبير بالماضي لتحقيق المستقبل: (لقد رضي الله)، (وأثابهم فتحاً قريباً)، (وعدكم الله مغانم كثيرة). استعمال الفعل الماضي هنا يفيد القطعية والتحقق، إنّ الرضا والثواب والوعد أمور فرغ منها واستقرت في واقع الوجود، وهو ما يبعث على اليقين المطلق.

استعارة "الإنزال" للسكينة: (فأنزل السكينة عليهم). السكينة معنى قلبي، لكن التعبير بالإنزال يشعر بعلوّ مصدرها (الله) وثقلها الإيجابي الذي يثبّت القلوب الطائرة من القلق والغيظ، كأنها غيث يصب على أرض قاحلة مضطربة.

وقد تعني السكينة: الملائكة، فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كان رَجُلٌ يَقرَأُ سورةَ الكَهفِ، وإلى جانِبِه حِصانٌ مَربوطٌ بشَطَنَينِ، فتَغَشَّته سَحابةٌ، فجَعَلَت تَدنو وتَدنو وجَعَلَ فرَسُه يَنفِرُ، فلَمَّا أصبَحَ أتى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فذَكَرَ ذلك له، فقال: تلك السَّكينةُ تَنَزَّلَت بالقُرآنِ[1]..

وفي رواية عنه رضي الله عنه: قَرَأ رَجُلٌ الكَهفَ، وفي الدَّارِ الدَّابَّةُ، فجَعَلَت تَنفِرُ، فسَلَّمَ، فإذا ضَبابةٌ -أو سَحابةٌ- غَشيَتْه، فذَكَرَه للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: اقرَأْ فُلانُ؛ فإنَّها السَّكينةُ نَزَلَت للقُرآنِ. أو تَنَزَّلَت للقُرآن[2]

أي: إنَّ هذه السَّحابةَ كان فيها المَلائكةُ وعليهمُ السَّكينةُ نزَلوا يَستَمِعونَ للقُرْآنِ؛ وقيلَ: إنَّ السَّكينةَ شَيءٌ مِن مَخْلوقاتِ اللهِ تعالَى فيها طُمأْنينةٌ، ورَحمةٌ، ومعَها مَلائكةٌ يَستَمِعونَ القُرآنَ؛ ولذلك نفَرَتِ الدَّابَّةُ لمَّا رَأتْهم، وهذا فيه فَضلُ قِراءةِ القُرآنِ، وأنَّها سَببُ نُزولِ الرَّحمةِ، وحُضورِ المَلائكةِ..

الكناية الإيحائية في (تحت الشجرة): لم يقل "إذ يبايعونك في الحديبية"، بل حدد المكان بـ (تحت الشجرة). هذا التحديد المادي يضفي واقعية وحميمية على المشهد، ويتحول ظل الشجرة الوارف إلى رمز لظلال الرضا الإلهي الذي حاطهم.

وقد ظلت تلك البيعة تحت الشجرة فخراً وعنواناً لهم رضي الله عنهم: فعن العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم قال: شهِدْتُ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ حُنَينٍ فلقد رأَيْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وما معه إلَّا أنا وأبو سُفيانَ بنُ الحارثِ بنِ عبدِ المطَّلبِ فلزِمْنا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فلَمْ نُفارِقْه وهو على بغلةٍ شَهباءَ وربَّما قال : بيضاءَ أهداها له فَرْوةُ بنُ نُفَاثةَ الجُذاميُّ فلمَّا التقى المُسلِمونَ والكفَّارُ ولَّى المُسلِمونَ مُدبِرينَ وطفِقَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يركُضُ على بغلتِه قِبَلَ الكفَّارِ قال العبَّاسُ : وأنا آخِذٌ بلجامِ بغلةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أكُفُّها وهو لا يألو يُسرِعُ نحوَ المُشرِكينَ وأبو سُفيانَ بنُ الحارثِ آخِذٌ بغَرْزِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : (يا عباسُ نادِ : يا أصحابَ السَّمُرةِ) وكُنْتُ رجُلًا صيِّتًا وقُلْتُ بأعلى صوتي : يا أصحابَ السَّمُرةِ فواللهِ لكأنَّ عَطْفَتَهم حينَ سمِعوا صوتي عَطفةُ البقرِ على أولادِها يقولونَ : يا لبَّيْكَ يا لبَّيْكَ فأقبَل المُسلِمونَ فاقتَتَلوا هم والكفَّارُ فنادَتِ الأنصارُ : يا معشرَ الأنصارِ ثمَّ قُصِرَتِ الدَّعوةُ على بني الحارثِ بنِ الخزرج فنادَوْا : يا بني الحارثِ بنِ الخزرج قال : فنظَر رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو على بغلتِه كالمُتطاوِلِ عليها إلى قتالِهم ثمَّ قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : (هذا حينَ حمِيَ الوطيسُ) ثمَّ أخَذ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حصَياتٍ فرمى بهنَّ وجوهَ الكفَّارِ ثمَّ قال : (انهزِموا وربِّ الكعبةِ انهزِموا وربِّ الكعبةِ) قال : فذهَبْتُ أنظُرُ فإذا القتالُ على هيئتِه فيما أرى فواللهِ ما هو إلَّا أنْ رماهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بحَصَيَاتِه فما أرى حدَّهم إلَّا كليلًا

1 - أخرجه البخاري (5011)، ومسلم(795) .
2 - أخرجه البخاري (5011)، ومسلم(795)

وأَمْرَهم إلَّا مُدبِرًا حتَّى هزَمهم اللهُ قال : وكأنِّي أنظُرُ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يركُضُ خلفَهم على بغلتِه[1].

المجاز المرسل والطباق في "كف الأيدي": (أيدي الناس) و(أيديهم عنكم وأيديكم عنهم). اليد هنا مجاز مرسل علاقته السببية (لأن اليد سببية البطش والقتال).

والجمع بين "أيديهم عنكم" و"أيديكم عنهم" فيه طباق مقابلة بديع يصور حالة السلم المفروض بقدر الله ورحمته لا برغبة الطرفين.

اللطائف اللسانية والتحليل النحوي: يشرح ابن تيمية (في الفتاوى والتفسير) واللسانيون التراكيب النحوية لبيان دلالاتها العقائدية والتربوية:

أداة الشرط والظرفية (إذ): في قوله (إذ يبايعونك)، "إذ" ظرف لما مضى من الزمان متعلق بـ (رضي). وهنا نكتة لسانية دقيقة: رضا الله عنهم قبل البيعة وأثناءها وبعدها، لكن علّق ظهوره وإعلانه بزمن البيعة، لبيان شرف هذا الفعل (البيعة) وجعله سبباً تترتب عليه الآثار الإيجابية اللاحقة.

حذف المفعول به للاستغراق: في قوله (فعلم ما في قلوبهم)، لم يحدد ما الذي علمه (هل هو الصدق؟ الوفاء؟ الألم؟). حذف المفعول هنا جعل الجملة عامة (ما في قلوبهم) يفيد الاستغراق والشمول لكل المشاعر الإيجابية التي جيشت في صدورهم من صدق النية وتحمل المشقة لمرضاة الله ورسوله.

الإطناب بالاعتراض التشريعي: في قوله تعالى: (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات...)

هذه الجملة الامتناعية (لولا) طال جوابها جداً وتأخر، والتقدير: لولا وجودهم لسلطكم الله عليهم ودمرتموهم.

النحاة يقفون عند قوله تعالى: (أن تطؤوهم): المصدر المؤول في محل جر بدل اشتمال من "رجال ونساء" (أي لولا كراهة وطئكم إياهم بالقتل).

الشاهد اللساني البلاغي هنا هو الإطناب والاعتراض بقوله: (لم تعلموهم) و(بغير علم)؛ للتأكيد الدائم على نفي الجناية العمدية عن الصحابة لو وقع القتال، وصيانة لعرض الجيش المسلم من أن يُعاب بوطء دماء المؤمنين.

وهذا يذكرنا بذكر الله سبحانه إعذار النملة سليمان وجنوده في قوله تعالى: (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ

1 - أخرجه مسلم (1775)، وأحمد (1775)، وابن حبان(7049)، قال الشارح: أصحابَ السَّمُرةِ، وهي الشَّجرةُ الَّتي بايَعوا تحتَها بَيعةَ الرِّضوانِ يومَ الحُديبيَةِ.

وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ(19))

صيغة المبالغة وتذييل الآيات: تنتهي الآيات بفواصل مشتقة من الأسماء الحسنى (عزيزاً حكيماً، على كل شيء قديراً، بما تعملون بصيراً، بكل شيء عليماً).

يوضح محمد قطب في لفتاته التربوية أن هذه التذييلات النحوية (وهي أخبار لكان أو مبتدآت محذوفة) ليست لمجرد السجع، بل هي العلة التكوينية والتشريعية للأحداث. فمنع القتال كان بـ "حكمة وعلم" (عليماً)، وحقن الدماء لأن الله "بصير" بالضمائر والمستقبل (بصيراً).

خلاصة: إذا تضافرت هذه المناهج، نخرج برؤية متكاملة للنص: الآيات تنقل المسلمين من ضيق "الحدث الآني" (الصلح الذي بدا مجحفاً، وحمية الجاهلية التي صدتهم عن البيت) إلى سعة "قدر الله المحيط" فهذا الصلح فتح، وفتح خيبر بعدها قريب، وكذا فتح مكة، والمغانم الكثيرة، وحقن دماء المؤمنين الخفيين، وإنزال السكينة.

لقد صاغ القرآن من "شجرة" الحديبية رمزاً أبدياً للرضوان، وحوّل الانكسار العسكري الظاهري إلى انتصار تربوي ونفسي وتشريعي ساحق، بفضل البناء اللساني الذي يربط الأرض بالسماء، والقلب بالسكينة، والحدث البشري بالسنّة الإلهية المضطردة (ولن تجد لسنة الله تبديلاً).

*(لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (27) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا(28) مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا(29))

هذه الخاتمة الجليلة لـ سورة الفتح تمثل ذروة البشائر والتوثيق الرباني لجيل الصحابة، والانتقال بالنص من تفاصيل الواقعة الأرضية (الصلح والبيعة) إلى الآفاق الكونية والمستقبلية للدين، ثم الالتفات لتصوير الملمح النفسي والتعبدي والجهادي للمجتمع المسلم الأول.

السياق والمقاصد العامة (المحور السياقي والمقاصدي): يرى ابن عاشور أن المقصد الأول في هذا المقطع هو رفع التردد والشبهة التي حاكت في صدور بعض الصحابة (كعمر بن الخطاب) حين تساءلوا: "أولم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف

به؟"، كما في حديث المسورة بن مخرمة رضي الله عنه، سبق في أسباب النزول، فجاءت الآية لتؤكد صدق الرؤيا النبوية وتكشف عن التوقيت الحكيم.

أما سيد قطب فيرتقي بالمقصد إلى "إعلان الهوية الوجودية للأمة المسلمة". فلم تعد القضية قضية عمرة أو مكة، بل إن المقصد الكوني هو:

العالمية والإظهار: (ليظهره على الدين كله)؛ فالحديبية لم تكن تراجعاً، بل نقطة الانطلاق الكبرى للعالمية.

صناعة النموذج: تقديم اللوحة الختامية (محمد رسول الله والذين معه) كنموذج بشري مثالي مستحق للاستخلاف والتمكين الإلهي.

النظم وحكمة الترتيب: يبرع البقاعي في تتبع الرابط العضوي؛ حيث يرى أن السورة بدأت بالفتح (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً)، وانتهت ببيان ماهية هذا الفتح ورجاله.

الربط بين العلم البشري والعلم الإلهي: في الآية السابقة قال: (فعلم ما في قلوبهم)، وفي الآية (27) قال: (فعلم ما لم تعلموا). فالعلم الأول ارتبط بـ الضمائر (فأثابهم السكينة)، والعلم الثاني ارتبط بـ المصالح والآجال والغيب (فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً).

التدرج من الخاص إلى العام: بدأ النص بطمأنة النبي وصحابته على رؤيا خاصة وعمرة قريبة (لتدخلن المسجد الحرام)، ثم ارتقى إلى بعثة الرسالة العامة (هو الذي أرسل رسوله بالهدى)، ثم ختم بالثناء على "الكتلة البشرية" الحاملة لهذه الرسالة (محمد رسول الله والذين معه).

اللطائف اللسانية والنحوية: امتازت الأبنية النحوية في هذا المقطع بدلالات بيانية دقيقة شرحها المحققون:

أ. التوكيد بالقسم والمستقبل: في قوله: (لَتَدْخُلُنَّ)، اللام هي الموطئة للقسم، ونون التوكيد الثقيلة تبدد أي شك. ونكتة الاستثناء بـ (إن شاء الله) هنا—مع أن الدخول محقق ومقضي—أشار ابن تيمية إلى أنها لتعليم العباد الأدب والتعليق بالمشيئة، وقيل هي مشيئة أمن الخائفين، أو لدخول من بقي حياً منهم.

ب. النصب على الحال المتعاقبة: (آمنين، محلقين... ومقصرين، لا تخافون). جاءت هذه الألفاظ منصوبة على الحال من واو الجماعة في (لتدخلن)، لترسم تفاصيل المشهد بدقة سينمائية مذهلة:

الحال الأولى: الهيئة النفسية والسياسية (آمنين).

الحال الثانية والثالثة: الهيئة التعبدية المشتركة والموزعة (محلقين رؤوسكم ومقصرين)؛ واستعمال الواو هنا للتقسيم (أي بعضكم محلق وبعضكم مقصر).

الحال الرابعة: جملة فعلية مؤكدة للحال الأولى (لا تخافون)؛ لنفي أدنى هاجس للقلق.

ج. الابتداء والقطع الإعرابي: في قوله تعالى: (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ...)

(محمدٌ): مبتدأ، و(رسولُ الله): صفة له أو عطف بيان، و(والذين معه): معطوف على المبتدأ، والخبر هو (أشيداءُ).

وقيل (محمدٌ رسول الله) جملة اسمية تامة مستأنفة (مبتدأ وخبر)، ثم (والذين معه) مبتدأ جديد خبره (أشداء). هذا القطع والاستئناف يمنح الاسمين (محمد) و(الذين معه) استقلالاً وتفخيماً في السمع، تفرضه منزلة الممدوحين.

4. الأسرار البلاغية والبيانية: امتلأت الآية الختامية بصور بلاغية فريدة، تدرجت من الصورة الحسية إلى التمثيل البديع:

أ. بلاغة "المقابلة" و"الالتفات" في صفات الصحابة: (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) -> هذه مقابلة بديعة جمعت بين النقيضين في آن واحد: الصلابة واللين. إنها شدة "العزة والمنعة" لا غلظة الطباع، ورحمة "المحبة والتواد" لا ذلة الضعف.

ب. الكناية بالرؤية البصرية: (تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا) -> عبّر بـ (تراهم) للدلالة على أن هذه العبادة ليست سراً معزولاً، بل تحولت إلى ظاهرة مرئية مستمرة (صيغة المضارع والوصف "ركعاً سجداً" تدل على الديمومة والتكرار).

ج. التمثيل الثنائي (مثل التوراة ومثل الإنجيل): فصل القرآن بين المثلين بأروع إيجاز، فجعل صفة العبادة والخشوع مَثَلَهم في التوراة (سيماهم في وجوههم من أثر السجود)، وجعل صفة النمو والجهاد والقوة مَثَلَهم في الإنجيل، وقيل: إن المثلين في الكتابين التواة والإنجيل، ثم قوله تعالى: (كزرع أخرج شطأه) جملة استئنافية. والله أعلم.

الاستعارة التمثيلية البديعة (مَثَلُ الإنجيل): (كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ)...

الزرع قيل: هو النبي ﷺ. والشطء: هم الصحابة الذين نبتوا حوله كالأفراخ الصغيرة. فآزره: قواه وأعانه. فاستغلظ: اشتد عوده وتكاثر. فاستوى على سوقه: قام مستقيماً قوياً على جذوعه.

تتابع حروف العطف (الفاء) يفيد التعقيب والسرعة التكوينية المذهلة لهذا المجتمع الفريد، والصورة تعكس قمة "الحركية والنماء العضوي" التي أبرزها محمد قطب في كتاباته عن التربية والمنهج الإسلامي.

اللمسة التربوية والوجدانية: يقف سيد قطب بخشوع أمام التعقيب الإلهي على صورة الزرع المستوي: (يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ).

يعجب الزراع: الزارع الحقيقي هنا هو الله سبحانه (الذي رعى هذا الغرس)، والنبي ﷺ الذي تعهد الجيل بالتربية. إنها الفرحة الربانية والنبوية بنضج الثمرة البشرية.

ليغيظ بهم الكفار: يوضح ابن تيمية (وروي بإسناده إلى الإمام مالك) أن هذه الآية أصل في أن مَن غاظه أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فهو كافر؛ لأن علة النماء والقوة هنا هي إغاظة الكفار بوجود هذا الكيان الصلب.

خاتمة: تختم السورة بـ (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا).

استخدام (مِنْهم) هنا—كما يذكر المحققون—ليست للتبعيض الإخراجي (أي ليس بعضهم)، بل هي لبيان الجنس (أي من هذا الجنس الفريد الذي اتصف بهذه الصفات)، أو هي تبعيض لمن شهد الحديبية من عموم الأمة.

بدأت السورة بـ (مغفرة) للنبي ﷺ (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر)، وختمت بـ (مغفرة وأجر عظيم) لأصحابه والذين معه، ليلتحق التابعون بالقائد في موكب الغفران، وتكتمل دائرة "الفتح المبين" نفسيًّا، وروحيًّا، وسياسيًّا، وعقائديًّا.

*

سورة الحجرات

تسمية السورة

(سورة الحجرات)، وهو اسمها في جميع المصاحف وكتب التفسير، لورود هذا اللفظ فيها، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات:4]، كما أُطلقت عليها أسماء وصفية تدل على موضوعاتها، ومنها:

(سورة الأخلاق): لاشتمالها على قواعد السلوك والأخلاق الإسلامية الفاضلة، و(سورة الآداب): لورود العديد من التوجيهات والأدب الواجب التحلي به مع الله ورسوله ﷺ ومع الناس.

وسورة الحجرات سورة مدنية، نزلت في المدينة المنورة بعد سورة المجادلة، وهي تعالج قضايا التشريع والأخلاق والمجتمع المُسْلِم.

أما بخصوص عدد آياتها: فيُعدها علماء الكوفة **18آية**، بينما يعدها علماء البصرة والحجاز ودمشق **17آية**، وذلك حسب اختلافهم في عد آي القرآن فما يعده البعض آية قد يعده أخرون آيتين.

سبب نزول بعض الآيات

عن ابن أبي مليكة أنّ عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أخبره: أنَّه قدِمَ رَكبٌ مِن بَني تَميمٍ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال أبو بَكرٍ: أمِّرِ القَعقاعَ بنَ مَعبَدٍ، وقال عُمَرُ: بَل أمِّرِ الأقرَعَ بنَ حابِسٍ، فقال أبو بَكرٍ: ما أرَدتَ إلى، أو إلَّا خِلافي، فقال عُمَرُ: ما أرَدتُ خِلافَكَ، فتَمارَيا حتَّى ارتَفَعَت أصواتُهما، فنَزَلَ في ذلك: (يا أيُّها الذينَ آمَنوا لا تُقدِّموا بينَ يَدَيِ اللهِ ورَسولِه) حتَّى انقَضَتِ الآيةُ. [1].

وفي رواية البخاري قال الراوي: كَادَ الخَيِّرَانِ أنْ يَهْلِكَا ثم ساق الحديث[2].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه في قَولِه تعالى: (إنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) قال: قام رجلٌ فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ حَمْدي زَينٌ، وإنَّ ذَمِّي شَينٌ، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ذاك اللهُ عزَّ وجَلَّ[3]..

بسم الله الرحمن الرحيم

*(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1)يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (2) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (3) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ(4) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(5))

هذه الافتتاحية والاستهلال المهيب لسورة الحجرات يمثل "دستور الأدب الذي أدب الله جل وتعالى به صحابة نبيه رضي الله عنهم والمؤمنين من بعدهم"، لسورة تؤسس لبناء المجتمع الفاضل من خلال تنظيم العلاقة مع القيادة العليا للأمة (الرسالة والنبوة).

البعد المقاصدي والسياقي: يُسمي المفسرون هذه السورة "سورة الأخلاق والآداب". يرى البقاعي في (نظم الدرر) أنّ مقصود السورة هو "جمع الأمة على أدب واحد يربطها بنبيها وببعضها."

أما سيد قطب في الظلال، فيقسّم الآيات إلى أشواط تربوية، ويرى أنّ هذا المطلع يهدف إلى "صياغة الشخصية المسلمة" وتجريدها من الهوى الذاتي، لتتحول من "الفوضى الجاهلية" إلى "الانضباط الإلهي".

---

1 - أخرجه البخاري (4367، 4847) وأخرجه البزار (2187) باختلاف يسير، والترمذي (3266) والنسائي (5386) بنحوه.
2 - أخرجه البخاري (4845 و7302).
3 - أخرجه الترمذي (3267)، والنسائي في ((الكبرى)) (11451)، والروياني في ((مسنده)) (307) باختلاف يسير، قال في الدرر السنية: إسناده صحيح.

الآيات الخمس الأولى تُهيكل الأدب مع الله ورسوله قبل الانتقال للأدب مع المجتمع والتي سوف تركز على التثبت من الأخبار، وعدم السخرية، وعدم التجسس.

*(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ).

هذه الآية سيقت في أسلوب عربي قد لا يكون أتى في القرآن إلاّ في هذا الموضع؛ تقول العرب: لا تقدم بين يدي الإمام، وبين يدي الأب، أي: لا تعجل بالأمر والنهي دونه، والمعنى بين يدي أمرهما ونهيهما، والمعنى العام للآية: النهي عن المسارعة في اتخاذ القرارات، أو القضاء في أمر من أمور الدين أو الدنيا، قبل أن يقضي فيه الله ورسوله.، وجوب الاتباع: تقديم أوامر الله وسنة نبيه ﷺ على كل رأي أو اجتهاد يخالفهما.

وهنا ذكر الإمام البغوي سبب نزول هذه الآية، حديث أبن أبي مليكة السابق عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما الذي سبق في سبب النزول.

التحليل اللفظي والنحوي، قوله سبحانه: (يا أيها الذين آمنوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ).

حذف المفعول (بلاغة الإيجاز): الفعل (تُقَدِّمُوا) جاء متعدياً ولكنه حُذف مفعوله. النكتة النحوية هنا هي التعميم؛ أي: لا تقدموا قولاً، ولا رأياً، ولا حكماً، ولا تشريعاً، ولا قضاءً.

الاستعارة التشبيهية التشخيصية: عبارة (بَيْنَ يَدَيِ) أصلها حسي (المكان الذي يقع أمام الشخص وقريباً منه)، ولكنها استُعيرت معنوياً لتعني: لا تعجلوا بقطع أمر قبل أن يحكم الله ورسوله فيه.

وقال مجاهد رحمه الله: لا تفتاتوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء حتى يقضيه الله على لسانه[1].

*(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ).

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لَمَّا نزَلَتْ هذه الآيةُ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ} [الحجرات: 2] قعَد ثابتُ بنُ قيسِ بنِ شَمَّاسٍ في بيتِه وقال : أنا الَّذي كُنْتُ أرفَعُ صوتي وأجهَرُ له بالقولِ وأنا مِن أهلِ النَّارِ ففقَده النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فأخبَروه فقال : (بل هو مِن أهلِ الجنَّةِ

1 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معلم السنن) (ص1126)

) قال أنَسٌ : فكنَّا نراه يمشي بَيْنَ أظهُرِنا ونحنُ نعلَمُ أنَّه مِن أهلِ الجنَّةِ فلمَّا كان يومُ اليمامةِ وكان ذلكَ الانكشافُ لبِس ثيابَه وتحنَّط وتقدَّم فقاتَل حتَّى قُتِل[1].

علل لهذا النهي بقوله سبحانه: (أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)، الموقع الإعرابي: (أن تحبطَ) في محل نصب مفعول لأجله بتقدير كراهة أو خشية (أي: خشيةَ أن تحبط أعمالكم).

الالتفات إلى الأصل اللغوي واللساني لكلمة "الحَبْط" يفتح للمتدبر نافذة بيانية مذهلة، تكشف عن الرعب الكامن في جزئية العقاب الإلهي الخفي.

لقد غاص أساطين التفسير والبلاغة في ظلال هذه اللفظة الاستعارية (أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)، لنخرج بقرية بيانية متكاملة أبعادها كالآتي:

الحقيقة اللغوية واللسانية (أصل المَجاز): في لسان العرب، الحَبَطُ (بفتح الباء) هو داء يصيب الماشية (الدابة أو الناقة) حين ترعى في مرعى وبيل (خبيث خضر)، فتشره في الأكل وتستمرئ طعمه، فتنفتح بطنها وتنتفخ حتى تموت.

يقول أهل اللغة: "حَبِطَتِ الدَّابَّةُ إِذَا أَكَلَتْ فَأَفْرَطَتْ فِي الأَكْلِ حَتَّى تَنْتَفِخَ فَتَمُوتَ."

وجه الشبه والاستعارة: اللفظ هنا استعير للعمل الصالح الذي يربو وينتفخ في عين صاحبه، أو الإنسان الذي يظن أنه ممتلئ بالخير والطاعة، لكن في داخله علة قاتلة (وهي ترك الأدب مع الرسول أو تقدم الرأي على النص) تؤدي إلى هلاك هذا العمل الصالح واضمحلال أثره كلياً.

التحليل البلاغي والنحوي: بلاغة الاستعارة المكنية والتمثيلية: تأمل كيف حوّل القرآن الكريم المعنى المعنوي (بطلان الثواب) إلى مشهد حسي مخيف. يرى ابن عاشور في (التحرير والتنوير) أنّ في اللفظة بشاعة توحي بالخسارة المفاجئة؛ فالناظر إلى الماشية الحَبِطة يحسبها سمينة ممتلئة لحماً وخيراً، ولكنه في الحقيقة "انتفاخ هلاك" لا "امتلاء صحة."

وكذلك العمل الصالح، قد يصلي المرء ويجاهد ويتصدق (فيبدو عمله عظيماً منتفخاً)، لكن بمجرد خلل في الأدب مع مقام النبوة، ينكشف هذا الامتلاء عن ريح وهباء.

---

1 - أخرجه أبو يعلى (3331)، واللفظ له، وأحمد (12399)، باختلاف يسير، والبخاري (3613)، ومسلم (119)، بلفظ مقارب.

النكتة النحوية والسياقية في قوله تعالى: (أَن تَحْبَطَ): المفعول لأجله المقدر هنا (حذرَ أو كراهةَ أن تحبط) يفيد الجزم بأنّ هذا الفعل (رفع الصوت) علة مؤدية حتماً للحبوط إن لم يتداركه المرء.

الجملة الحالية المعجزة (وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ): الواو للحال، والجملة في محل نصب. هذه الجملة هي "الظل" الأكثر رعباً في الآية. لو كان الحبوط يأتي بصدمة يشعر بها العبد لربما تدارك نفسه بالتوبة، لكنه "حبوط متسلل" يسير في خفاء كدبيب النمل، تماماً كالماشية التي تأكل وهي تلذ بالطعام ولا تشعر أن حتفها في مضغها!

الظلال المقاصدية والتربوية: يقف سيد قطب (في ظلال القرآن) مبهوتاً أمام هذه الحساسية الإيمانية التي تطلبها الآية، فيقول:

" إنها تربية الوجدان على مكشوف الشعور.. إن حركة التقييم هنا تبلغ لطافة متناهية؛ فالذنب قد لا يكون كفراً مخرجاً من الملة بالمعنى الفقهي، ولكنه خدش في جدار العقيدة يحبط العمل بأكمله دون أن يدرك صاحبه أنه قد عاد مفلساً."

أما محمد قطب في كتاباته التربوية، فيشير إلى أن الآية تقرر ضابطاً نفسياً؛ وهو أن الإنسان قد يؤتى من مأمنه. فالغرور بالطاعة والامتلاء النفسي بها (تماماً كانتفاخ الدابة الخادع) يعمي العبد عن عيوب سلوكه، فيرفع صوته أو يقدم رأيه وهو يظن أنه يخدم الدين، بينما هو يهدم أصله.

مسألة: الفقه العقدى والروحي: دَرَسَ شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم هذه المسألة في معركة فقهية طويلة، وهي مسألة "هل تحبط الأعمال بغير الكفر؟" مستدلين بهذه الآية بالذات.

فكانت رؤية شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى-: أن السيئات الكبار قد تحبط الحسنات المقابلة لها دون الخروج من الملة، والتقدم بين يدي الرسول أو رفع الصوت فوق صوته معصية كبرى محبطة لثواب ذلك العمل الصالح، أو مفسدة لبركته ونوره.

أمّا ابن القيم – رحمه الله - في مدارج السالكين: فيربط بين حبط الماشية وحبط العمل برابط روحي عجيب، فيقول ما معناه:

"سبحان الله! الدابة تأكل ما تظنه قوتاً شفاءً، فإذا هو سمٌّ غذاء؛ والعبد يعمل العمل يظنه قربةً ونجاة، فإذا قارنه سوء أدب أو عجب أو تقدم بين يدي السُنّة، انقلب القوت سمّاً وأحبط العمل وصاحبه لا يشعر."

ويؤكد ابن القيم أنّ الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم هو "عين الإيمان"، وأنّ نقصان الأدب ينقص الإيمان حتى يصل بالعبد إلى حافة حبوط العمل بالكلية وهو سادر في غفلته.

خلاصة المشهد البياني لظلال الآية: إن الجمع بين (الانتفاخ الخادع للماشية) و (عدم شعور الإنسان بالهلاك) يعطينا صورة نفسية معجزة:

الخداع البصري: عملٌ يبدو كالجبال في الظاهر، ولكنه مجوف من بركة القبول في الباطن.

التسلل الخفي: العقوبة لا تأتي بزلزلة توقظ الغافل، بل تأتي بانسحاب تدريجي للتوفيق، فيسلب العبد رصيده من الحسنات دون أن يتغير عليه شيء في دنيائه، حتى يقدم على الله مفلساً.

وقد جاء في السنة ما يقارب هذا المعنى، مثل حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أتَدرونَ ما المُفلِسُ؟ قالوا: المُفلِسُ فينا مَن لا دِرهَمَ له ولا مَتاعَ، فقال: إنَّ المُفلِسَ مِن أُمَّتي يَأتي يَومَ القيامةِ بصَلاةٍ، وصيامٍ، وزَكاةٍ، ويَأتي قد شَتَمَ هذا، وقَذَفَ هذا، وأكَلَ مالَ هذا، وسَفَكَ دَمَ هذا، وضَرَبَ هذا، فيُعطى هذا مِن حَسَناتِه، وهذا مِن حَسَناتِه، فإن فنيَت حَسَناتُه قَبلَ أن يُقضى ما عليه أُخِذَ مِن خَطاياهم فطُرِحَت عليه، ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الحسدُ يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النَّارُ الحطبَ والصَّدقةُ تُطفئُ الخطيئةَ كما يُطفئُ الماءُ النَّارَ والصَّلاةُ نورُ المؤمنِ والصِّيامُ جُنَّةٌ من النَّارِ[2].

حتمية الانقياد: الوقوف عند حدود النص وتعظيم الجناب النبوي ليس نافلة أو أدباً تكميلياً، بل هو "صمام الأمان" الذي يحرس رأس مال العبد (عمله الصالح) من الانفجار والحبوط.

الالتفات المخيف: الجملة الحالية (وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) هي ذروة الفجيعة اللسانية؛ فالحبوط عقوبة تلحق بالعمل، ونفي الشعور يعني أن الهلاك يتسلل إلى الإنسان من حيث يظن أنه يحسن صنعاً.

المعمار البلاغي: يتجلى التناسب البياني في الآيات عبر تدرج تربوي عجيب، يعلق عليه ابن عاشور في (التحرير والتنوير) قائلاً: "انتقل النظم من الأدب التشريعي (عدم السبق بالرأي) إلى الأدب الهيئوي (تخفيض الصوت)."

ناصية التوجيه البلاغي في الآيات: صيغ المبالغة التذييلية: ختم الآية الأولى بـ (سَمِيعٌ عَلِيمٌ) يناسب المقصد؛ (سَمِيعٌ) لأقوالكم المتقدمة، و(عَلِيمٌ) بنياتكم ومقاصدكم.

---

1 - أخرجه مسلم (2581) من أفراد مسلم على البخاري.
2 - أخرجه ابن ماجة (4210)، وأبو يعلى (3656)، وابن عدى في ((الكامل)) (433/6)، والقضاعي في (الشهاب) (1049)، قال في الدرر السنية: حسن غريب.

الطباق والمقابلة: قوبل الذم في الآية الثانية (لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ) بالمدح العظيم في الآية الثالثة (يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ).

ويؤكد العلماء أن "حبوط العمل" قد يقع بأمور خفية لا يشعر بها العبد، ومن أعظمها التقدم بين يدي السُنّة بالآراء والقياسات العقلية الفاسدة، أو رفع الهوى فوق نص الشارع.

*(إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ).

قَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: فَكَانَ عُمَرُ بَعْدُ وَلَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ عَنْ أَبِيهِ يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ إِذَا حَدَّثَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَدِيثٍ، حَدَّثَهُ كَأَخِي السِّرَارِ، لَمْ يُسْمِعْهُ حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ.» [1].

وفي هذا سرعة امتثال الخيران والصحابة عموما لأمر الله تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم.

الإشارات التربوية والروحية: يركز ابن القيم (مستلهماً من شيخه ابن تيمية) في كتاباته (مثل مدارج السالكين) على قوله تعالى: (امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ).

تفسير الإشارة: الامتحان هنا معناه "التنقية والتصفية" (كإحراق الذهب بالنار ليخلص من الشوائب). فالأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم -سواء في حياته أو مع سنته بعد وفاته- ليس سلوكاً ظاهرياً مجرداً، بل هو نتيجة تصفية قلبية نجح صاحبها في اختبار التقوى.

ثم جاء التشنيع اللفظي بالعدول عن الاسم الظاهر: في الآية الرابعة (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ، وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)،

ساق الواحدي في أسباب النزول بسنده إلى أبي مسلم البجلي قال : سمعت زيد بن أرقم يقول : أتى ناس النبي - صلى الله عليه وسلم - وسلموا ، فجعلوا ينادونه وهو في الحجرة : يا محمد ، يا محمد ، فأنزل الله تعالى) : إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون .

ثم قال: وقال محمد بن إسحاق وغيره : نزلت في جفاة بني تميم، ثم ساق حديثا مثل حديث البراء بن عازب الذي سبق في سبب النزول أعلاه.

---

1 - أخرجه البخاري (7302).

استخدم الفعل المضارع المتجدد (يُنَادُونَكَ) للدلالة على تكرار هذا الجفاء، وجاء الوصف بنفي العقل (لَا يَعْقِلُونَ) لبيان أن الجفاء الإنساني مع النبوة هو مظهر من مظاهر نقص العقل الفطري.

خلاصة البناء التركيبي للآيات: الآية المستهدف البياني المقصد التربوي:

الآية (1) النهي عن التقدم الإرادي والتشريعي الاستسلام والانقياد التام

الآية (2) النهي عن الجفاء الصوتي واللفظي الهيبة والتوقير لربيع النبوة

الآية (3) الثناء على أهل الأدب السلوكي التقوى القلبية والمغفرة

الآية (4-5) ذم أهل العجلة والغلظة الجاهلية غرس الصبر والوقار الاجتماعي

تختتم الآيات بـ (وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) لفتح باب الأمل؛ فالجهل بالجفاء السلوكي يغفره الله ويرحمه إذا تداركه العبد بالتعلم، والتأدب، والوقوف عند حدود النور الإلهي.

*(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7) فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (8) وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(11) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (12)يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(13))

هذا المقطع من سورة الحجرات يمثل "الهندسة الأخلاقية والاجتماعية الشاملة" لبناء الأمة الحصينة، فبعد أن نظّم المقطع الأول الأدب مع "القيادة العليا" (الله ورسوله)، ينتقل الوحي هنا لصياغة "الأدب البيني" لحماية الجبهة الداخلية من التآكل النسيجي والطبقي والنفسي.

البعد السياقي والمقاصدي: يرى البقاعي في (نظم الدرر) أنّ سياق هذه الآيات مبني على "صيانة الوحدة النامية للأمة"، فكل آية تسد ثغرة يتسلل منها الشيطان لإفساد القلوب.

أما سيد قطب (في ظلال القرآن)، فيرى أن السورة تنتقل بالمسلمين من "التطهير الفردي" إلى "التطهير الجماعي"، واصفاً هذا المقطع بأنه "إقامة مجتمع نظيف، مصون الحرمات، لا تؤخذ فيه التهمة بالظنة، ولا تعبث به الأهواء."

المقصد الكلي هنا هو "حفظ الروابط"، وجاء الترتيب السياقي في غاية الدقة:

أولاً: حماية المجتمع من الخطر الخارجي الشائعات (إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بنبأ فتبينوا).

ثانياً: علاج الاقتتال الفعلي إذا وقع (وَإِن طَائِفَتَانِ من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا).

ثالثاً: تجفيف منابع الاقتتال النفسي واللفظي (السخرية، اللمز، التنابز، الظن، التجسس، الغيبة).

رابعاً: صهر الفوارق الطبقية والعرقية في بوتقة واحدة (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ).

التحليل اللساني والنحوي ودقائق الإعراب: (إن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا) تنكير الذوات وتعظيم التثبت.

التنكير والتعميم النحوي: جاءت كلمتا (فَاسِقٌ) و(بِنَبَإٍ) نكرتين في سياق الشرط، لتفيدا العموم الشمولي؛ أيّ فاسقٍ كان، وأيّ نبأٍ أتى به (صغيراً أو كبيراً)، فالقاعدة اللفظية تقتضي التوقف.

التعليل بالمصدر المنصوب (بِجَهَالَةٍ): الباء هنا للسببية والمصاحبة، أي: أن تصيبوا قوماً متلبسين بجهالة بحالهم، وجملة (أَن تُصِيبُوا) مفعول لأجله بتقدير (كراهةَ أن تصيبوا).

*(وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ، فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ).

عن علقمة رضي الله عنه قال: " بعث إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة بن أبي معيط يصدق أموالنا فسار حتى إذا كان قريبا منا وذلك بعد وقعة المريسيع رجع فركبنا في أثره وسقنا طائفة من صدقاتنا ونفقات ، يحملونها فقدم قبلهم فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أتيت قوما في جاهليتهم جدوا القتال، ومنعوا الصدقة فلم يغير ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلت عليه {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ} [[الحجرات: 6]] الآية، قال: وأتى المصطلقيون النبي صلى الله عليه وسلم على أثر الوليد بطائفة من فرائضهم يسوقونها، ونفقات يحملونها فذكروا ذلك له وأنهم خرجوا يطلبون الوليد بصدقاتهم فلم يجدوه قال: فرفعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان معهم وقالوا: يا رسول الله بلغنا مخرج رسولك فسررنا بذلك وقلنا نتلقاه فبلغنا رجعته فخفنا أن يكون ذلك سخطة علينا

وعرضوا على النبي صلى الله عليه وسلم أن يشتروا منه ما بقي فقبل منهم الفرائض وقال: ارجعوا بنفقاتكم فإنا لا نبيع شيئا من الصدقات حتى نقبضه فرجعوا إلى أهاليهم وبعث إليهم من قبض بقية صدقاتهم[1].

(اقْتَتَلُوا) و (بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ) (أسرار الصيغ الصرفية والنحوية): المطابقة بالجمع بعد التثنية: قال (وَإِن طَائِفَتَانِ) (تثنية)، ثم قال (اقْتَتَلُوا) (جمع) ولم يقل "اقتتلتا". النكتة اللسانية هنا -كما يذكر ابن عاشور- أن الطائفة تشتمل على أفراد كثر، فلو قال "اقتتلتا" لتوهم المرء أن القتال بين قائدين أو مجموعتين صغيرتين، لكن صيغة الجمع (اقْتَتَلُوا) أبرزت انخراط الأفراد واشتعال الفتنة بين الجميع.

العدول من الجمع إلى التثنية: في قوله (فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ)، عاد إلى التثنية؛ للإشارة إلى أن المسلمين -مهما تعاظمت طوائفهم المقتتلة- يجب أن يعاملوا في الإصلاح كأخوين شقيقين، يُشفق عليهما وتُلم شعثهما برفق.

وكان الصلح بين طوائف المسلمين دأب النبي صلى الله عليه وسلم، من ذلك ما جاء في حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: بلغَهُ أنَّ بني عمرِو بنِ عوفٍ كانَ بينَهم شَرٌّ، فخرجَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ يُصلِحُ بينَهم في أناسٍ معَهُ، فحُبِسَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ، وحانتِ الصلاة فجاءَ بلالٌ إلى أبي بَكرٍ رضيَ اللهُ عَنهُما فقالَ: يا أبا بَكرٍ، إنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ قد حُبِسَ حانتِ الصَّلاةُ ، فَهل لَكَ أن تؤمَّ النَّاسَ ؟ قالَ: نعَم إن شئتَ. فأقامَ بلالٌ الصلاةَ وتقدَّمَ أبو بَكرٍ فَكبَّرَ وكبَّرَ النَّاسُ، وجاءَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ يَمشي في الصُّفوفِ حتَّى قامَ في الصَّفِّ، فأخذَ النَّاسُ في التَّصفيقِ، وَكانَ أبو بَكرٍ رضيَ اللهُ عَنهُ لا يلتفتُ في الصَّلاةِ، فلمَّا أَكثرَ النَّاسُ التَّصفيقَ التفتَ، فإذا رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ فأشارَ إليْهِ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ - زاد البخاري في رواية له: أن امكث مكانك- فرفعَ أبو بَكرٍ رضيَ اللهُ عَنهُ يدَهُ فحمِدَ اللَّهَ ورجعَ القَهقَرى وراءَهُ حتَّى قامَ في الصَّفِّ، فتقدَّمَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ فصلَّى للناس، فلمَّا فرغَ أقبلَ على النَّاسِ فقالَ: أيُّها النَّاسُ، ما لَكم حينَ نابَكم شيءٌ في الصَّلاةِ أخذتم في التَّصفيقِ، إنَّما التَّصفيقُ للنِّساءِ، مَن نابَهُ شيءٌ في صلاتِهِ فليقُلْ: سبحانَ اللَّهِ؛ فإنَّهُ لا يسمعُهُ أحدٌ حينَ يقولُ: سُبحانَ اللَّهِ إلَّا التفتَ، يا أبا بَكرٍ: ما منعَكَ أن تصلِّيَ بالنَّاسِ حينَ أشرتُ إليْكَ ؟ فقالَ أبو بَكرٍ: ما كانَ يَنبغي لابنِ أبي قُحافةَ أن يصلِّيَ بالنَّاسِ بينَ يدَي رسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ[2].

1 - [الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم](4/ 309)

2 - أخرجه البخاري (7190)، ومسلم (421) باختلاف يسير

*(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

*(لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ... وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ) إفراد النساء بالذكر بعد عموم القوم: كلمة "قوم" في لسان العرب تقع أصالة على الرجال (لأنهم هم الذين يقومون بالأمور)، وعطف (نِسَاءٌ) عليهن من باب عطف الخاص على العام كشفاً لطبيعة الآفة؛ فالمرأة في طبيعتها البيولوجية والنفسية قد تكثر في تجمعاتها السخرية والتهكم، فجاء النص صريحاً لقطع دابر السلوك.

وجاء التحذير في سنة النبي صلى الله عليه وسلم كذلك، فعن أم المؤمنين عائشة بنت الصديق رضي الله عنها قالت: قلتُ للنَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: حسبُكَ مِن صفيَّةَ كذا وَكَذا . قالَ: غيرُ مسدَّدٍ، تَعني قصيرةً، فقالَ: لقد قُلتِ كلمةً لو مُزِجَت بماءِ البحرِ لمزجَتْهُ. قالَت: وحَكَيتُ لَهُ إنسانًا. فقالَ: ما أحبُّ أنِّي حَكَيتُ إنسانًا وأنَّ لي كذا وَكَذا[1].

المعيار البلاغي والبياني: المجاز العقلي والاستعارة المكنية في (وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ):

اللمز هو عيب الآخرين بالإشارة أو اللفظ، كما في قوله تعالى: (وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) [الهمزة:1]، لكن القرآن هنا لم يقل للمؤمنين: "لا تلمزوا إخوانكم"، بل قال (أَنفُسَكُمْ).

البلاغة المعجزة: جعل الأخ بمثابة النفس، فمن عاب أخاه فكأنما وجّه خنجر اللمز إلى صدره هو، وهذا أبلغ تجسيد لـ "وحدة الجسد الاجتماعي." وهذا كثير في القرآن، وفي السنة كما في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال، قال صلى الله عليه وسلم: المُؤْمِنَ للمؤمنِ كالبُنْيانِ يشدُّ بَعضُهُ بعضًا[2].

وفي رواية : إنَّ المُؤمِنَ للمُؤمِنِ كالبُنيانِ يَشُدُّ بَعضُه بَعضًا. وشَبَّكَ أصابِعَ[3]...

وفي الآية الاستعارة التمثيلية البشعة في الغيبة (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا)، يقف ابن القيم مبهوراً في (أمثال القرآن) عند هذه الآية، ويحلل المشهد البلاغي التمزيقي عبر تركيب عجيب:

---

1 - أخرجه أبو داود (4875) واللفظ له، والترمذي(2502) ، قال ابن دقيق العيد عن سند الحديث: صحيح

2 - أخرجه البخاري (6026)، ومسلم.(2585)

3 - أخرجه البخاري (481)، ومسلم.(2585) باختلاف يسير.

كذا الاستفهام الإنكاري (أَيُحِبُّ): وهو استفهام يقرع الفطرة ويسفه الذوق الإنساني.

كما أنّ صياغة الفردية (أَحَدُكُمْ): خص الفرد ليوجه الخطاب لضمير كل شخص بمفرده.

أكل اللحم الآدمي: وهي غريزة وحشية مستقذرة أصلا، وفوق هذا فإنّ إضافة اللحم إلى "الأخ": تهيج عاطفة الرحم والقرابة المانعة من الأذى.

ثم إنّ جعل الأخ "ميتاً": لأن الميت لا يشعر ولا يدافع عن نفسه، تماماً كالغائب الذي تنهش عرضَه في غيبته وهو لا يدري.

النتيجة الحتمية: (فَكَرِهْتُمُوهُ)؛ جاء الفعل ماضياً ومحققاً، أي: كما كرهتم هذا الفعل الحسي المقزز يقيناً، فاكرهوا الغيبة معنوياً يقيناً.

الإشارات الروحية والعقدية: ترتيب آفات اللسان والنفس: يشير محمد قطب في (دراسات في النفس الإنسانية) إلى أن الآيات تدرجت في الغوص داخل النفس البشرية:

بدأت بآفات تظهر علناً في المجموعات: (السخرية، اللمز، التنابز)، ثم غاصت إلى البواطن الخفية: (الظن السيء)، ثم التجسيم السلوكي للظن: (التجسس، ثم النتيجة النهائية الفتاكة: (الغيبة).

إنها عملية "تنظيف وتطهير" للمجهر الداخلي للإنسان حتى لا يرى عورات الناس ويغفل عن عيب نفسه.

تقرير الميزان الحقيقي للبشر (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) يعلق شيخ الإسلام ابن تيمية (في الفتاوى وكتاب الفرقان) على هذه الآية مبيناً أنها نسفت الميزان الجاهلي (النسب، المال، القوة، العرق) وأقامت ميزان (التقوى).

النكتة السياقية: جاءت هذه الآية {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم} مسكاً للختام؛ لأن كل الآفات السابقة (سخرية، لمز، بغي، غيبة) منشؤها الأساسي هو "الكِبْر ورؤية الذات فوق الآخر". فلما قرر الله أن أصلكم واحد (ذكر وأنثى)، وأن التفاضل بالتقوى فقط، سقطت حصون الكبر النفسي، ولم يعد هناك مبرر لساخرٍ أن يسخر، ولا لباغ أن يبغي.

*(ا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

جدول تلخيصي للمنظومة الأخلاقية والبيانية في المقطع

الآفـة النفسية / الاجتماعية	الأداة اللسانية والبيانية	المقصد التطهيري
الشائعات الفاسقة	التنكير الشمولي {فَاسِقٌ بِنَبَإٍ}	حفظ العقول والأمن المجتمعي
البغي والقتال صيغة	المفاعلة والجمع {اقْتَتَلُوا}	حقن الدماء وفرض العدل بالقوة
السخرية واللمز	مجاز تشخيصي (لَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ)	صيانة الكرامة الإنسانية المتبادلة
الظن والتجسس	الأمر بالاجتناب لـ (كَثِيرًا)	سداً للذريعة سلامة الصدور وحرمة الخصوصيات
الغيبة	الاستعارة التمثيلية الفظيعة (نهش الميت)	حفظ الأعراض في الغيب
الطبقية والعنصرية	قصر الكرامة بـ (إِنَّ أكرمكم عند الله أَتْقَاكُمْ)	المساواة الإنسانية الكبرى

تختتم هذه السلسلة التربوية بصفات الجلال والإكرام (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)؛ عليم بظواهركم وطبائعكم، خبير بضمائركم ومكنونات قلوبكم، فلا يصح البناء الاجتماعي إلا بمراقبته سبحانه.

*(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (14) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (15) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (16) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (17) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(18))

تُمثل هذه الخاتمة المهيبة لسورة الحجرات "مرحلة الفحص النفسي والتقرير العقدي الأخير"؛ فبعد أن شيدت السورة الآداب مع القيادة النبوية، ثم نظمت هندسة المجتمع من الداخل، تأتي الخاتمة لتضع النقط فوق الحروف في قضية الوجود الكبرى: ما هو الإيمان الحقيقي؟ ومن هو المؤمن الصادق؟

البعد السياقي والمقاصدي: يرى البقاعي في (نظم الدرر) أنّ سياق هذه الخاتمة متصل اتصالاً وثيقاً بأول السورة؛ فالسورة بدأت بالنهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله، وخُتمت بنوع من أنواع التقدم، وهو "ادعاء رتبة إيمانية لم يصل إليها القلب بعد" والمنّ بها على الرسول.

أما سيد قطب في الظلال، فيرى أن المقطع يعالج "مراحل تكوين العقيدة" في النفوس الفطرية (الأعراب). إنهم دخلوا الإسلام حديثاً استسلاماً طلباً للمغنم والأمن، فحسبوا أن هذا هو "الإيمان" الكامل، فجاء الوحي ليُرسي مقصداً عَقَدياً وتَربوياً حاسماً: تجريد الإيمان من المظاهر، ونقل النفوس من حيّز الإسلام الشكلي إلى حقيقة اليقين القلبي الخالص.

التحليل اللساني والنحوي ودقائق التراكيب: سر الحرف النحوي المعجز (وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ):

النكتة اللسانية في (لَمَّا)، حيث لم يقل سبحانه "ولم يدخل"، بل قال (وَلَمَّا). في قواعد النحو واللسان، تفترق لم عن لما في أنّ لما تفيد نفي الفعل في الماضي مع توقع ثبوته ودخوله في المستقبل.

الظل التربوي: هذا عدول رحيم غاية في الأناقة البيانية؛ فالقرآن لم يغلق الباب في وجوه الأعراب ولم يطردهم من حظيرة الدين، بل يقول لهم: الإيمان لم يدخل قلوبكم بعد، ولكنه أوشك وعسى أن يدخل إن صَدقتم.

البناء الفقهي عند ابن تيمية: استدل شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه الفذ (كتاب الإيمان) بهذه الآية للتفريق بين "الإسلام" و"الإيمان"؛ فالإسلام عمل ظاهري (استسلام وانقياد)، والإيمان عمل باطني مستقر في القلب، والآية فرقت بينهما لسانياً وشكلياً.

(لَا يَلِتْكُمْ) والعدول الصرفي قوله (لَا يَلِتْكُم) - بكسر اللام من غير همز - من الفعل (لاتَ يَليتُ) مثل (باعَ - يبيعُ)، وهي لغة "أهل الحجاز"، لات بمعنى نقصَ، هي قراءة جمهور القراء، ومنهم حفص عن عاصم ونافع وابن كثير وغيرهم..

وقرأ البصريان: «أبو عمرو، ويعقوب» «لا يألتكم» بهمزة ساكنة بعد الياء، وقبل اللام، مضارع «آلته» بفتح العين «يألته» بكسرها، مثل: «صدف يصدف» وعلى هذه القراءة لغة «غطفان» ومنه قوله تعالى: وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ [الطور:21]. والنكتة النحوية اللسانية هنا هي طمأنة النفس البشرية الشحيحة بطبيعتها: إن انقدتم ظاهراً، فإن الله لا ينقصكم من أجور أعمالكم ذرة، فعدله سابق على تكميل بواطنكم.

*(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)

المعمار البلاغي: بلاغة الحصر والتوكيد في (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ) يحلل ابن عاشور في التحرير والتنوير صياغة هذه الاية مبيناً أنها جاءت بأسلوب القصر (إِنَّمَا) لردّ

ادعاء الأعراب. فالأعراب ادعوا الإيمان عريضاً، فجاء القصر ليحصر صفة "المؤمنين" الحقيقيين في الذين جمعوا بين ثلاثة شروط بلاغية وعقدية:

أصل العقيدة: (آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ). وانتفاء العارض النفسي: (ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا). واستخدام الحرف {ثُمَّ} التراخي يفيد استمرار اليقين وتأصله عبر الأيام والخطوب، فلا يزلزلهم شك، ثم لابد من البرهان العملي الحركي: (وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ).ثم نتيجة تحقق الشروط الثلاثة: (أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ).

*(قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

الاستفهام الإنكاري التوبيخي (قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ)، هنا تبرز بلاغة التقريع. الاستفهام ليس للاستخبار، بل هو لبيان مدى الجهل والجرأة؛ فكيف يُعلّم المخلوق الحادثُ الخالقَ الأزلي بما في ضميره؟

وجاء التذييل الكوني: (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) لبيان شمولية العلم، فمن يعلم غيب الأكوان لا يخفى عليه ما انطوت عليه الحجيرات الصدرية للبشر، (وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ).

*(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)

الإشارات الروحية والنفسية: آفة "المنّ" وعقدة الاستعلاء النفسي (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا)،

يغوص محمد قطب في تحليل النفسية الأعرابية هنا؛ فالأعراب دخلوا الإسلام دون تضحيات تذكر (مقارنة بالمهاجرين والأنصار)، فظنوا أن مجرد كفهم عن قتال الرسول ودخولهم في السلم "منّة" صبّوها على رأس الدعوة!

المقابلة والبلاغة التصحيحية: جاء الرد حاسماً وقاطعاً لكبرياء النفس: (قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ).

تعليق ابن القيم: يشير – رحمه الله- في مدارج السالكين إلى أن هذه الآية تكشف عن أصل التوفيق؛ فالعبد لا يملك من أمره شيئاً، والطاعة ذاتها هي "منّة" من الله على العبد وليس العكس. المنّ على الله ورسوله بالعمل دليل على مَرَض القلب وعُجْبه، وهو من أقصر الطرق لـ "حبوط العمل" الذي حذرت منه أول السورة! فالتأمت الخاتمة مع البدء التئام السوار بالمعصم.

خلاصة البناء اللفظي والمقاصدي لختام السورة: تتكامل الآيات الخمس الأخيرة لتصنع ميزاناً ختامياً دقيقاً، يُلخص في الجدول التالي:

الصياغة القرآنية	اللمسة البيانية واللسانية	الظل المقاصدي والتربوي
(قُولُوا أَسْلَمْنَا)	إحلال اللفظ الأدنى مكان الأدعى	الوقوف عند الحقيقة بلا ادعاء زائف
(ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا)	عطف بـ {ثُمَّ} لنفي الشك مستقبلاً	اشتراط اليقين الثابت لاستحقاق الوصف
(قل أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بدينكم)	استفهام توبيخي تقريعي	تحطيم الغرور البشري أمام العلم الإلهي
(بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أن هداكم للإيمان إن كنتم مؤمنين)	إضراب إبطالي بـ {بَلْ}	إرجاع الفضل لصاحب الفضل (التوحيد النفسي)
(إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)	(وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)) تذييل بصيغة المبالغة	{بَصِيرٌ} تؤذي إلى الرقابة الذاتية؛ فالظاهر والباطن مكشوفان

هكذا تُغلق سورة الحجرات ملفاتها التربوية؛ بدأت بأدب الصوت والحركة أمام حضرة رسول الله، وانتهت بأدب القلب والضمير أمام غيب السماوات والأرض، ليتطابق ظاهر المؤمن مع باطنه، ويتحقق "الرشد" الذي هو غاية هذه السورة الفاضلة.

*

سورة ق

تسمية السورة

(سورة ق) :سُميت بهذا الاسم لافتتاحها بحرف "ق"، وهو من الحروف المقطعة التي تقع في أوائل السور.

كما يطلق عليها (سورة ق والقرآن المجيد): سُميت بذلك نسبةً إلى الآية الأولى منها.

(سورة الباسقات): وهو اسم اجتهادي ذكره بعض العلماء مثل ابن عاشور (في كتاب الإتقان)، وذلك لقوله تعالى فيها (وَالنَّخْلَ باسِقاتٍ) [ق:10] أي عاليات طوال.

وهي السورة الأخيرة من السورة التي ابتدأت بالحروف المقطعة فواتح سور القرآن.

وسورة "ق" سورة مكية بإجماع المفسرين، باستثناء خلاف يسير جداً؛ حيث قال بعض العلماء إن الآية رقم (38) منها مدنية (وهي قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ)

كما أنه لا يوجد خلاف بين علماء العدد؛ فعدد آياتها 45 آية في جميع المدارس العددية (كالمدرسة الكوفية، البصرية، الشامية، والحجازية).

سبب نزول السورة

للرد على المشركين المكذبين بالبعث، كما في قوله تعالى: (بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ، أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ)

جاء في سبب نزول قوله تعالى: (وما مسنا من لغوب): عَنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: أنَّ اليهودَ أتَتِ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فسألَتْهُ عن خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، فقال: خلَقَ اللهُ الأرضَ يومَ الأحدِ والاثنيْنِ، وخلَقَ الجبالَ يومَ الثُّلاثاءِ، وخلَقَ يومَ الأربعاءِ الشَّجَرَ والماءَ والمَدائنَ والعُمرانَ والخَرابَ، قال اللهُ تعالى: {أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ} [فصلت: 9]، إلى قولِهِ: {وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ} [فصلت: 10]، وخلَقَ يومَ الخميسِ السَّماءَ، وخلَقَ يومَ الجُمُعةِ النُّجومَ والشَّمسَ والقمرَ والملائكةَ إلى ثلاثِ ساعاتٍ بَقِينَ، فخلَقَ في أوَّلِ ساعةٍ الآجالَ، وفي الثَّانيةِ ألْقَى الآفةَ على كلِّ شيءٍ ممَّا يَنتفِعُ به النَّاسُ، وفي الثَّالثةِ خلَقَ آدمَ وأسكَنَهُ الجنَّةَ، وأمَرَ إبليسَ بالسُّجودِ له، وأخرَجَهُ منها في آخِرِ ساعةٍ، ثم قالتِ اليهودُ: ثم ماذا يا مُحمَّدُ؟ قال: ثم استوى على العرشِ، قالوا: قد أَصَبْتَ لو أَتْمَمْتَ، قالوا: ثم استَراحَ؛ فغضِبَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غضبًا شديدًا؛ فنزلَتْ: {وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (38) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ} [ق: 38، 39] [1].

قال ابن عاشور في (التحرير والتنوير): كان بعضُ اليهودِ بمكَّةَ يقولونَ: إنَّ اللهَ خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أيامٍ، واستراحَ في اليومِ السَّابعِ، والاستِراحةُ تُؤذِنُ بالنَّصَبِ والإعياءِ، فلمَّا فَرَغَت الآيةُ مِن تَكذيبِ المشركينَ في أقوالِهم؛ عطَفَت إلى تَكذيبِ الَّذين كانوا يُحدِّثونَهم بحديثِ الاستِراحةِ، فهذا تأويلُ موقعِ هذه الآيةِ في هذا المحلِّ[2].

جاء في فضائل سورة ق: أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت: لقد كان تَنُّورُنا وتَنُّورُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم واحِدًا، سَنَتَينِ، أو سَنةً وبَعضَ سَنةٍ، وما أخَذتُ {ق والقُرآنِ المَجيدِ} إلَّا عن لسانِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يَقرَؤُها كُلَّ يَومِ جُمُعةٍ على المِنبَرِ إذا خَطَبَ النَّاسَ[3].

---

1 - أخرجه الطبري في ((التاريخ)) (1/ 22)، وأبو الشيخ الأصبهاني في ((العظمة)) (4/ 1362)، والحاكم (3997) واللفظ لهم، قال الذهبي: صححه الحاكم وأنى ذلك والبقال قد ضعفه ابن معين والنسائي

2 - أانظر ابن عاشور : التحرير والتنوير(26/325),

3 - أخرجه مسلم (837) من أفراد مسلم على البخاري.

بسم الله الرحمن الرحيم

*(قۚ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًاۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (3) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْۖ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (4) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ (5) أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (6) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (8) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (10) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ (11) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (12) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (13) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍۚ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (14) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ(15))

هذه الافتتاحية المهيبة لـ سورة "ق" تمثل وثيقة كونية ونفسية كبرى، تتشابك فيها مستويات اللسان، والبلاغة، والكون، والنفس لتشييد حقيقة واحدة: حتمية البعث والإحياء، وهو ما كان يدندن به ويحوم حوله المشركون في تكذيبهم للنبي، مع الإلحاح في طلب آية.

المحور المقاصدي والسياقي: يرى ابن عاشور أن المقصد الأسمى للسورة هو إثبات "البعث" وإبطال عجب المشركين منه. أما سيد قطب فيصف السورة بأنها "هزة قوية للقلب البشري الخامد"، حيث تمتاز بإيقاع قاصف كوقع الطبول في الفراغ الكوني.

البنية السياقية: تنقسم الآيات إلى ثلاثة تموجات سياقية: الموقف النفسي للمنكرين (التعجب، فالإنكار، فالاضطراب النفسي)، والمحاكمة الكونية (نقل المعركة من الجدل العقيم إلى مسرح الكون المنظور: السماء، الأرض، المطر، النبت)، وعمق التاريخ والمآل (الاستدلال بالتاريخ "الأمم السابقة" وبلحظة البدء "الخلق الأول").

النكت البلاغية والجمالية: يركز البقاعي في (نظم الدرر) على التناسب والالتحام الشديد بين فواصل الآيات، بينما يبحر ابن القيم في المشاهد المشهودة كأدلة على الغيب المستور.

(ق): حرف من حروف فواتح السور، والتي رجح شيخنا محمد بن صالح العثيمين -رحمه الله- فيها ما اختاره ابن القيم وشيخ الإسلام بن تيمية- رحمهما الله-، واختاره تلميذه الحافظ الذهبي -رحمه الله-، وجمع كثير من أهل العلم: أن الحكمة من الإتيان بها في فواتح السور هي الإشارة إلى بيان إعجاز القرآن العظيم، وأن هذا

القرآن لم يأت بكلمات، أو بحروف خارجة عن نطاق البشر، وإنما هو من الحروف التي لا تعدو ما يتكلم به البشر، ومع ذلك فقد أعجزهم[1].

(وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) الشريف الكريم على الله، وهو من أدلة الذين رجحوا القول أعلاه، أن حروف فواتح السور جاءت لبيان إعجاز القرآن العظيم، قالوا: فإنّ الله عادة ما يذكر بعد هذه الحروف القرآن، أو ما في معناه، إلا سورة العنكبوت، وسورة الروم، والله أعلم.

*(بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ): التنكير للتعظيم: أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ.. نكّر المنذر لتعظيم شأنه، وشَيْءٌ عَجِيبٌ للتناهي في الغرابة لديهم، فهو صلى الله عليه وسلم ينذرهم البعث، ويوم القيامة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خَرَجَ إلى البَطحاءِ، فصَعِدَ إلى الجَبَلِ فنادى: يا صَباحاه! فاجتَمعت إليه قُرَيشٌ، فقال: أرَأيتُم إن حَدَّثتُكُم أنَّ العَدوَّ مُصَبِّحُكُم أو مُمَسِّيكُم، أكُنتُم تُصَدِّقوني؟ قالوا: نَعَم، قال: فإنِّي نَذيرٌ لَكُم بينَ يَدَي عَذابٍ شَديدٍ، فقال أبو لَهَبٍ: ألِهذا جَمَعتَنا؟ تَبًّا لَكَ! فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: {تَبَّت يَدا أبي لَهَبٍ} إلى آخِرِها[2].

(أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ)، وفي سورة يس: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) [يس:78-79]. فليس شيء صعب على الله جل وتعالى.

(قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ) أي: ما تأكل من لحومهم، ودمائهم، وعظامهم، لا يعزب عن علمه سبحانه، (وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ) محفوظ من الشياطين، ومن أن يدرس ويتغير، وهو اللوح المحفوظ، وقيل: حفيظ أي حافظ لعدتهم وأسمائهم وما نتقص الأرض منهم.

إعجاز (تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ): استعمال الفعل المضارع المتجدد الدال على الإحاطة الذرية؛ فالأرض تأكل الأجساد، لكن النقص معلوم ومحصى في كتاب حفيظ.

*(بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ) أي: القرآن، (لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ) أي: مختلط، قال لحسن: ما ترك قوم الحق إلاّ مرج أمرهم.

هنا يتجلى الإعجاز في اختيار "المفردة" وموقعها الإعرابي لتأدية المعنى النفسي والكوني:

---

[1] - محمد بن صالح العثيمين (ت202م): تفسير القرآن الكريم (ج1/ص23) ، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الثانية 1431هـ .

[2] - أخرجه البخاري (4972) ومسلم (208) باختلاف يسير

الدلالة اللفظية لـقوله سبحانه: (مَرِيجٍ) في قوله تعالى: (فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ).. المرج هو الاختلاط والاضطراب. حركياً: عندما كذبوا بالحق الفاصل المستقر، عقابهم النفسي الفوري هو الدخول في حالة "سيولة فكرية واضطراب"، فلا هم مستقرون على قول (شاعر، ساحر، كاهن).

*(أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ، وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ)

تقف هذه الآيات الثلاث كواحدة من أبهى اللوحات الكونية المنظورة في القرآن الكريم. إنها لقطة علوية وسفلية، تتشابك فيها الأبعاد البصرية والجمالية والعقلية لتشكيل محاكمة فكرية للمنكرين.

البعد المقاصدي والسياقي: نقل المعركة من الجدل إلى المشاهدة: يرى ابن عاشور أن السياق انتقل هنا انتقالاً بديعاً؛ فبعد أن كان الحديث عن أقوال المشركين المتهافتة واضطرابهم الفكري (فِي أَمْرٍ مَّ مَرِيجٍ)، نُقِلوا فجأة من ضيق حجاجهم النفسي إلى سعة الفضاء الكوني. إنّ القرآن يقول لهم: دعوا الجدال الفكري الفلسفي، وانظروا إلى الواقع المادي المشهود الذي لا تمتد إليه يد بشرية.

الربط بين كتابين: يبرز سيد قطب هنا نظريته في أن القرآن يربط بين "الكتاب المسطور" (القرآن) و"الكتاب المفتوح" (الكون). هذه المقابلة بين السماء والأرض ليست مجرد استعراض جمالي، بل هي أدلة حسية شاخصة تواجه العقل المتبلد؛ فالسماء ببنائها وزينتها، والأرض بمدها ورواسيها، كلاهما ينفيان صفة "العبثية" عن الوجود، والبعث هو قمة الحكمة ونفي العبث.

البنية البلاغية والجمالية والمقابلة الكونية: يقوم البناء البلاغي هنا على المقابلة الكلية (المطابقة الشاملة) بين عالمين: عالم العلو وعالم السفل.

عالم العلو (السماء) عالم السفل (الأرض) النكتة البلاغية والمطابقة: بَنَيْنَاهَا (الرفع والإحكام) مَدَدْنَاهَا (البسط والتمهيد) مقابلة بين السقف المرفوع المحكم، والمهاد المبسوط المسهّل للاستقرار.

زَيَّنَّاهَا (جمال علوي ثابت: نجوم وكواكب) أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (جمال سفلي متجدد) مقابلة بين زينة الضياء والنجوم فوقاً، وزينة الألوان والخضرة والنبات تحتاً.

مَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (إحكام، تماسك، نفي التفسخ) أَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ (تثبيت، منع الاضطراب) السماء متماسكة ذاتياً بلا شقوق، والأرض ثُبّتت بالجبال لئلا تميد وتضطرب.

لطيفة ابن القيم في (زَوْجٍ بَهِيجٍ): يلحظ ابن القيم في كتبه أن جمال الأرض لم يأتِ لونا واحداً، بل "أزواجاً" (أصنافاً وأشكالاً)، ووصفها بـ "البهيج" وهو الذي يبهج النفس ويسر الخاطر. فالكون لم يُخلق وظائفياً بحتاً (لتأمين الأكل والشرب فقط)، بل خُلق بلمسة جمالية فائقة تدعو المحب إلى معرفة المنعم الجميل.

لطيفة البقاعي في المناسبة: يرى البقاعي في (نظم الدرر) أنّ نفي الفروج (الشقوق) عن السماء، يقابله إلقاء الرواسي في الأرض لمنع التصدع؛ فالسماء متماسكة من أصل خفتها، والأرض ممسكة بالجبال العظام، وكلاهما يعطيان صفة "الأمن والاستقرار الكوني" للإنسان لكي يتفرغ للعبادة والتفكر.

وثمة سر نحوي في تقديم الظرف (فَوْقَهُمْ): (أفلم ينظروا اِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ).. السماء لا تكون إلا فوقاً، لكن ذكر الظرف هنا لتنبيه الحاسة البصرية، وإشعارهم بالقهر والعلو والسيطرة البارية؛ فهي فوقهم تحيط بهم أينما ولّوا وجوههم، لا يستطيعون الانفكاك عن النظر إليها.

تأويل (كَيْفَ) في قوله تعالى: (كَيْفَ بَنَيْنَاهَا).. (كيف) اسم استفهام في محل نصب حال أو مفعول به لـ (ينظروا) معلّق عن العمل. والدلالة اللسانية هنا أن الأمر لا يتطلب مجرد النظر إلى "ذات السماء"، بل النظر إلى "كيفية" الصنع، إلى الهندسة الكونية، والنظام الرياضي الدقيق الذي يحكمها.

صيغة الجمع والفاعلية المباشرة: بَنَيْنَاهَا، زَيَّنَّاهَا، مَدَدْنَاهَا، أَلْقَيْنَا، أَنبَتْنَا.. توالي نون العظمة (نا) الدالة على الفاعل الفرد العظيم الله. إسناد الأفعال الكونية مباشرة إلى ضمير الجلالة يقطع الطريق على أي تفسير مادي عشوائي للكون (كالقول بالطبيعة أو المصادفة)، ويعيد ربط الأثر بالمؤثر سبحانه.

إعراب (تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ): مفعول لأجله (أي: فعلنا ذلك البناء والمد والإنبات لأجل التبصرة والتذكير)، أو مصادر منصوبة بفعل محدد دل عليه السياق. النكتة النحوية هنا هي تحويل المشهد الفيزيائي الكوني إلى مادة أخلاقية وعقلية؛ فالهدف من هندسة الكون ليس التفرج، بل توليد "التبصرة" (للعين والعقل) و"الذكرى" (للقلب).

الإشارات المعرفية والنفسية وسيكولوجية "الإنابة": توضيح أنّ شرط الانتفاع بالأدلة هي الإنابة، قال: يختم النص اللوحة بشرط غاية في الأهمية: (لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ).

هنا يبرز ابن تيمية قاعدة معرفية كبرى: "الأدلة والبراهين لا تنفع إلا القلوب المستعدة لقَبول الحق". الكون مليء بالآيات، لكن أبا جهل كان يراها صباح مساء ولم يستفد. لماذا؟ لأن شرط الانتفاع هو "الإنابة" (الرجوع إلى الله والبحث المخلص عن الحقيقة).

يشير الأستاذ محمد قطب كذلك إلى أن "الجاهلية" تصيب الإنسان ببلادة الحس تجاه المعجزات اليومية المتكررة. فالإنسان يرى النجم والنبتة والماء كل يوم فلا تهتز نفسه، بينما القرآن يعيد شحن طاقة الانبهار البشري بالكون.

القرآن يقسم الناس أمام هذه المقابلة الكونية إلى قسمين:

أهل العجب والاضطراب: هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ← هؤلاء ينظرون بأعين رؤوسهم نظراً بليداً عابراً.

أهل التبصرة والإنابة: عَبْدٍ مُّنِيبٍ ← هؤلاء ينفذون من زينة السماء وبهجة الأرض إلى عظمة الخالق، فيعلمون أن الذي أتقن هذا الصنع لا يعجزه إعادة تركيب الإنسان بعد موته وصيرورته تراباً.

هكذا كانت المقابلة الكونية: طابق النص بين علوّ السماء الحصينة مَا لَهَا مِن فُرُوجٍ وبساط الأرض الممدود وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا.

(وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا) فلا تنتهي نعمة السماء عند كونها سقفا محفوظا، بل ينزل الله سبحانه منها مياه المطر المبارك، والذي تستجيب له الأرض فينبتها الله به سبحانه: (فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ).

وينبت الله به الأرض التي تذهب طوالاً في السماء باسقات: (وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ).

الاستعارة المكنية والترشيح: (وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ).. صورة النخل الطويل الباسق، والطلع المنضود (المرتب المترادف فوق بعضه) توحي بوفرة الحياة والقدرة على التركيب والتشكيل، وهو عين ما ينكرونه في العظام النخرة.

ومن جماليات هذا الدرس: الالتفات النحوي وصناعة الهيبة: قَدْ عَلِمْنَا (ضمير المتكلمين - العظمة) ← وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (صيغة المبالغة) ← كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ← وَنَزَّلْنَا.

تحول الخطاب الباري من التقرير لعلم الغيب إلى استعراض القوة والجمال الكوني بصيغة الجمع الدالة على ائتلاف صفات العظمة.

البناء الجغرافي للمفردات: رَوَاسِيَ (ثبات)، بَهِيجٍ (حياة وألوان)، بَاسِقَاتٍ (شموخ وعلو). الكلمات هنا ليست أشكالاً لغوية، بل كتل فيزيائية وجمالية تؤسس لمفهوم "الإتقان" الذي ينفي "العبثية".

الإشارات المعرفية والنفسية: عني ابن تيمية كثيراً بقضية "قياس الأولى" وعقلانية القرآن، بينما ركز محمد قطب على تفكيك الجاهليات النفسية.

العمى النفسي قبل البصري: يلحظ النص أن مشكلتهم ليست في نقص الأدلة، بل في الالتفات. لذا جاء الأمر: أَفَلَمْ يَنظُرُوا... النظر هنا ليس مجرد فيزياء الإبصار، بل هو نظر التثبت والتأمل.

الربط بين إحياء الأرض وإحياء الإنسان: هذا يجسد "قياس الأولى" العقلي الذي ركز عليه ابن تيمية: من أحيا الأنموذج المشهود (البلدة الميتة)، قادر بالضرورة على إحياء الأنموذج الغائب (الإنسان الميت).(كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ).

قانون التكذيب التاريخي: ذكرُ عاد وفرعون وثمود وأصحاب الأيكة.. ليس سرداً للتسلية، بل هو قانون نفسي واجتماعي؛ التكذيب له مآل واحد في التاريخ وهو "حق وعيد" (حلول العقاب)، مما يعني أن المشركين المعاصرين للتنزيل ليسوا بدعاً في التاريخ، وسينالهم نفس القانون السننّي.

معضلة اللّبس الفكري: بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ.. اللّبس هو الغموض الناشئ عن خلط الأمور. هم لم يعجزوا عن فهم قدرة الله، بل تلبّس عليهم الأمر لأنهم قاسوا قدرة الخالق المطلقة على قدرة المخلوق العاجزة.

خلاصة القراءة التدبرية: تبدأ الآيات بـ (ق) الحرف المستعلي الصلب، وتنتهي بـ (لبس من خلق جديد). وبين الحرف واللّبس، مسافة كونية هائلة تقطعها الآيات لتثبت أن العقل البشري الذي يرى تماسك السماء، وامتداد الأرض، واهتزاز النبت بالخضرة، لا يملك أدنى مبرر منطقي أو نفسي لكي يستغرب أو ينكر إعادة إحياء العظام.

الإنكار ليس قضية عقلية، بل هو "أمر مريج".. اضطراب نفسي يهرب من استحقاق التكليف والوقوف بين يدي الله.

*(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16)إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (20) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21) لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22) وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (23) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (25) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (26) ۞ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (27) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (28) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (29) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (30) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31) هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ

مُّنِيبٍ (33) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (34) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ(35))

هذا الشوط من سورة "ق" يمثل ذروة الحشر النفسي والمشهدي في القرآن الكريم؛ حيث ينتقل النص من التبصير بآيات الآفاق الواسعة إلى أغوار النفس البشرية وخباياها، ثم يعبر بالإنسان -في مشهد خاطف ومذهل- من لحظة خطرات النفس، إلى الاحتضار، ثم العرصات، وصولاً إلى مستقره الأخير في النعيم أو الجحيم.

المحور المقاصدي والسياقي: من المحاكمة الكونية إلى المحاكمة النفسية والمصيرية: بعد أن طاف القرآن بالعقل في مجالي السماء والأرض، عاد هنا ليطوف به في مسارب نفسه. يرى ابن عاشور أن المقصد الأساسي لهذا المقطع هو تجريد المنكرين من آخر معاقل الإنكار؛ فالذي يحيط بضميرك، ويكتب لفظك، ويسوقك للموت والبعث، لا يعجزه بعثك.

الظلال والمشاهد الشاخصة: يصف سيد قطب هذا الشوط بأنه "شريط متحرك سريع مروّع"، تبدأ المشاهد فيه بالسرائر والخفايا، وتنتهي بالمآل المفتوح على سعة النعيم أو قعر الجحيم. النص ينتقل بـ (كاف الخطاب) فجأة ليوجهها إلى السامع مباشرة لتهتز أركانه: (ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ).. (لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ).

تقديم المفعول وتحقيق العِلّم: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ ما توسوس به نفسه).. عبر بالمضارع (نَعْلَمُ) بعد الماضي (خَلَقْنَا) لإفادة تجدد العلم واستمراره بكل حركة وخطرة نفسية تطرأ على الإنسان في حاضره ومستقبله.

سبر أغوار الجملة (مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ): الوسوسة لغوياً هي الصوت الخفي، والباء في بِهِ للملابسة أو السببية. النكتة اللسانية هنا أنّ النفس هي الفاعل الشاخص للوسوسة، فجعل الخواطر نابعة من ذات الإنسان، تلازمه وتتغلغل فيه، ومع ذلك فإنّ علم الله يسبقها ويحيط بها.

وقد وكل به ملكان يحصيان عليه أقواله وأفعاله إن خير أو شر: (إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ، مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ).

بلاغة التنازع والالتفات في الحساب والمآل: في مشهد القيامة: (وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ).

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ)، ثم التنكير في (سائق وشهيد) في قوله تعالى: (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) للتفخيم والتهويل، فهما ملكان مجهولان مخيفان يسوقان النفس قسراً ويشهدان عليها طوعاً.

*(لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ، وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ، أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ)

في مشهد الجزاء: صياغة المبالغة لذنوب أهل النار: (كَفَّارٍ عَنِيدٍ) (صيغ مبالغة على وزن فَعَّال وفَعِيل)، ثم تتابع الأوصاف المقيتة: (مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ)؛ لتبيان أن العذاب الشديد مبني على تضخم جرائمهم واستحقاقهم الكامل له.

النكت البلاغية والتصويرية: اختيار حبل الوريد في قوله: (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ). الوريد هو العرق المشتبك بالقلب الذي به الحياة. يذكر ابن القيم أن القرب هنا هو قرب الملائكة الموكلين به بأمر الله، أو قرب العلم والقدرة والإحاطة الشاملة التي تسبق جريان الدم في ذلك الوريد، وهو تمثيل بديع لغاية القرب الهيمني والنفوذ الذاتي الذي لا يخفى عليه خافية.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: لَمَّا غَزا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خَيبَرَ -أو قال: لَمَّا تَوجَّهَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- أشرَفَ النَّاسُ على وادٍ، فرَفَعوا أصواتَهم بالتَّكبيرِ: اللهُ أكبَرُ اللهُ أكبَرُ، لا إلَهَ إلَّا اللهُ، فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: اربَعوا على أنفُسِكُم؛ إنَّكُم لا تَدعونَ أصَمَّ ولا غائِبًا، إنَّكُم تَدعونَ سَميعًا قَريبًا وهو معكُم. وأنا خَلفَ دابَّةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فسَمِعَني وأنا أقولُ: لا حَولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ، فقال لي: يا عَبدَ اللهِ بنَ قَيسٍ. قُلتُ: لَبَّيك يا رَسولَ اللهِ، قال: ألا أدُلُّك على كَلِمةٍ مِن كَنزٍ مِن كُنوزِ الجَنَّةِ؟ قُلتُ: بَلى يا رَسولَ اللهِ، فداك أبي وأُمِّي، قال: لا حَولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ[1] .

وفي رواية قال: أربِعوا على أنفسِكم إنَّكم لا تدعونَ أصمَّ، ولا غائبًا، إنَّكم تدعونَ سميعًا قريبًا. أقرَبُ إلى أحدِكم من عُنقِ راحلتِهِ[2] .

المشاكلة اللفظية والتقابل البديعي (بين الكتابة والجزاء): يلحظ البقاعي في (نظم الدرر) التناسب الفذ؛ فالإنسان في الدنيا لديه ملكان: (عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ)، وفي القيامة يقابله ملكان: (سَائِقٌ وَشَهِيدٌ).

وفي الدنيا يملك كتاباً يُحصي اللفظ: (رَقِيبٌ عَتِيدٌ)، وفي الآخرة يقدم الملك الحجة: (هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ). وكأن الألفاظ والمواقف جُمّدت هناك، وحُضّرت هنا بحذافيرها دون زيادة أو نقصان.

الحقيقة والترشيح في (سكرة الموت): (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ).. قال البلاغيون: استعارة مكنية؛ حيث شُبّه الموت بالشراب الذي يُسكر ويفقد الوعي، وجاءت مصحوبة بالحق الذي لا مرية فيه،

---

[1] - أخرجه البخاري (4205) ومسلم (2704) باختلاف يسير

[2] - ساقها ابن القيم في بدائع الفوائد، قال في الدرر السنية: صحيح.

عن عائشة رضي الله عنها قال أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا إله إلا اللهُ، إنَّ للموتِ سَكَرات[1].

وفي رواية عنها رضي الله عنها قالت: إنَّ مِن نِعَمِ اللهِ عليَّ: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم توفِّيَ في بَيتي وفي يَومي، وبينَ سَحري ونَحري، وأنَّ اللهَ جَمَع بينَ ريقي وريقِه عِندَ مَوتِه، دَخَلَ عليَّ عبدُ الرَّحمَنِ وبيَدِه السِّواكُ، وأنا مُسنِدةٌ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فرَأيتُه يَنظُرُ إليه، وعَرَفتُ أنَّه يُحِبُّ السِّواكَ، فقُلتُ: آخُذُه لَكَ؟ فأشارَ برَأسِه: أن نَعَم، فتَناولتُه، فاشتَدَّ عليه، وقُلتُ: أُلَيِّنُه لَكَ؟ فأشارَ برَأسِه: أن نَعَم، فلَيَّنتُه، فأمَرَّه، وبينَ يَدَيه رَكوةٌ -أو عُلبةٌ، يَشُكُّ عُمَرُ- فيها ماءٌ، فجَعَلَ يُدخِلُ يَدَيه في الماءِ فيَمسَحُ بهِما وجهَه، يقولُ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ، إنَّ للمَوتِ سَكَراتٍ، ثُمَّ نَصَبَ يَدَه، فجَعَلَ يقولُ: في الرَّفيقِ الأعلى، حتَّى قُبِضَ ومالَت يَدُه[2]..

فقوله: لا إلهَ إلَّا اللهُ، إنَّ للمَوتِ سَكَراتٍ»، أي: شَدائِدَ وأهْوالًا وآلامًا عَظيمةً، والله أعلم.

والترشيح هنا في قوله: (ذلك مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ) أي: تهرب وتميل، فالإنسان يهرب بالطبيب والدواء، ولكن المهرب ينتهي إلى ذات النقطة التي فر منها

الإشارات المعرفية والسلوكية: نظرية المعرفة وحقيقة البصر الحديد في قوله تعالى: (فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ). يقرر ابن تيمية هنا قانوناً معرفياً: المشرك والمنكر في الدنيا يعيش في حالة "حجاب" وعمى عن الغيبيات بسبب ركام الشهوات والشبهات، أما في القيامة فيتحول الغيب إلى شهادة مادية رغماً عنه، فيصبح بصره (حديداً) أي حاداً، نافذاً، يرى الملائكة، ويرى النار، ويرى الميزان، ولكنها رؤية اضطرار لا تنفع صاحبها؛ لأن الإيمان المعتد به هو "الإيمان بالغيب" لا "الإيمان بالشهادة قسراً".

الحوار الرهيب والاضطراب النفسي للقرناء: (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) هذا المشهد يحلله محمد قطب تنظيرياً في دراسة النفس البشرية؛ فالإنسان الكافر يحاول يوم القيامة إسقاط التبعة على الشيطان (القرين)، والشيطان يتبرأ منه بذكاء وخبث: (وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) أي: هو مستعد للضلال ذاتياً، وأنا لم أفعل سوى الوسوسة. فيأتي الحسم الإلهي القاطع كالمقصلة: (قال لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ، مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ).

---

[1] - أخرجه البخاري (4449)، والبيهقي في ((دلائل النبوة)) (11)، والبغوي في ((شرح السنة)) (3826) واللفظ لهم جميعا.

[2] - أخرجه البخاري (4449)، والبيهقي في ((دلائل النبوة))(206 /7) والبغوي في ((شرح السنة)) (3826) واللفظ لهما، وأحمد (25640)، وأبو يعلى في ((مسنده)) (4586) بنحوه.

الحوار الكوني والمقابلة النهائية وعودة لقوله تعالى: (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ)، منعت جهنم من الصرف للعلمية، لأنها علم، اسم خاص للنار الآخرة، وللتأنيث: لأنها تعامل معاملة المؤنث، أو لأنها أعجمية، غير عربية الأصل، وكلا السببين يمنعان من الصرف.

تصل البلاغة المشهدية إلى ذروتها في الاستجواب الكوني الهائل في قوله سبحانه: (يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلِ مِن مَّزِيدٍ)

استعارة التشخيص لجهنم: نُزّلت جهنم منزلة العاقل الذي يُخاطب ويُجيب. أو يقال أحوال يوم القيامة تختلف، فيه فعلاً تخاطب وتجيب. وجوابها (هَلْ مِن مَّزِيدٍ) يحتمل دلالتين مذهلتين: إما أنها تطلب الزيادة غيظاً على الكفار، أو أنها امتلأت تماماً وضاق جوفها لدرجة الاستفهام: هل بقي من أحد ليزداد فيّ؟ وفي كلا الحالتين هو مشهد يخلع القلوب من هول السعة والالتهام.

في المقابل تماماً، يحدث التوازن النفسي والجمالي المريح لقلب المؤمن:

(وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ)

الإزلاف: هو التقريب والتدنية. الجنة الشامخة البعيدة المطلب، تُقرّب هي بذاتها وتُزف للمتقين تكريماً لهم، فلا يتجشمون عناء السير إليها.

صفات أهل الجنة (الأوّاب الحفيظ): (هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ)، أَوَّابٍ: كثير الرجوع والإنابة والتوبة بعد الذنب، حَفِيظٍ: الحافظ لعهود الله وحدوده ووصاياه، والحافظ لقلبه من الالتفات لغير الله.

(مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ): مفارقة بلاغية رائعة؛ فالخشية (التي تقتضي الخوف والوجل) جُمعت مع اسم (الرحمن) الذي يفيض بالرحمة والرجاء، لأنه خافه في الدنيا حباً وتعظيماً وهو غائب عنه، فاستحق المكافأة: (وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ).

خلاصة التدبر: بدأ هذا المقطع بـ (حبل الوريد) قرب المحاسبة والمراقبة داخل الجسد)، وانتهى بـ (ولدينا مزيد) سعة النعيم المطلق في الجنة. وبين "الوريد" و"المزيد"، رحلة كاملة يختصرها القرآن ليعلم الإنسان أن كل لَفْظة يلفظها في الدنيا، هي اللبنة التي يبني بها مقعده إما في جهنم التي لا تشبع، أو في الجنة التي تفتح أبوابها بسلام الخلود.

*(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (36)إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (37) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (38) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (39) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (40) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (41) يَوْمَ يَسْمَعُونَ

الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (42) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (43) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (44) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ(45))

وصلنا إلى الدرس لثالث والأخير، خاتمة سورة "ق" المحكمة؛ حيث تلتقي فيه أطراف السورة بمنتهاها، وتتحرك الخاتمة في إيقاع كوني ونفسي يجمع بين "التهديد بالتاريخ"، و"الاستدلال بالخلق"، و"توجيه القائد البشري (ﷺ)" إلى زاد الطريق، لينتهي المشهد بالصيحة الختامية التي يتصدع لها الوجود.

المحور المقاصدي والسياقي: رد العجز على الصدر والختام السنني: يرى ابن عاشور أن هذا الشوط يمثل الفذلكة – الخلاصة، أو مجمل ما تم تفصيله - والقرع الختامي للسورة. فبعد أن استعرض النص البعث وأحوال القيامة ونهاية النفوس، عاد ليخاطب مشركي مكة الحاضرين، ومن تلا ومن سمع؛ ليقول لهم إن القوة المادية والبطش الجغرافي لا يحمي من سنن الله التاريخية.

الزاد المعنوي في معركة التكذيب: يلحظ سيّد قطب أنّ السياق يتحول هنا تحولاً حانياً ولطيفاً نحو النبي ﷺ: (فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ).. فبعد هول مشاهد جهنم والبعث، يتنزل هذا التوجيه كبلسم يربط على قلب الداعية، موضحاً أن علاج التكذيب والضيق النفسي ليس الصدام العنيف بل "التسبيح والاتصال بالخلق الأول".

*(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ)

الدلالة الحركية لـ (فَنَقَّبُوا): التنقيب في اللغة هو خرق الأرض والسير في مسالكها، والبحث الحثيث والتفتيش. النكتة اللسانية هنا تصوّر هؤلاء الأقوام الأقوياء وهم يجوبون الأرض طولاً وعرضاً، ويبنون الحصون، ويبحثون عن ملجأ أو مفر من الموت أو العذاب، فجاء الجواب الاستفهامي الإنكاري الفجائي: هَلْ مِن مَّحِيصٍ (أي لا مهرب ولا محيد).

إعجاز الآلة الإدراكية (قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ)، في قوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

عبر بـ (أَوْ) التي تفيد التنويع والتقسيم الذكي للناس في تلقي الوعي:

القسم الأول: من كان له قلب حيّ، واعٍ، يدرك الحق بمجرد الإشارة والبديهة العقلية.

القسم الثاني: من ليس لديه تلك البديهة الفائقة، ولكنه يملك "حُسن الاستماع": (أَلْقَى السَّمْعَ)، والإلقاء يوحي بتركيز الحاسة وتفريغها تماماً للمتكلم، وحسن الإنصات، بشرط أن يكون (وَهُوَ شَهِيدٌ) أي حاضر القلب والذهن، لا ساهياً ولا لاهياً.

*(وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ)

البنية البلاغية والجمالية والتناسب: تفكيك فرية اليهود ونفي "اللغوب": وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ.. اللغوب هو التعب والإعياء. يذكر ابن القيم أن هذه اللفظة جاءت رداً بلاغياً وعقدياً حاسماً على فرية اليهود الذين قالوا إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع (السبت). فجاء نفي المساس (وَمَا مَسَّنَا) تنزيها للها وكناية عن اقتراب التعب والحجز من الله ليدل على أن التعب لم يقترب أصلاً منه سبحانه، لأن الخلق يقع بكلمة "كن" دون حركات مادية تُجهد الفاعل.

*(فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ، وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ)

هاتان الآيتان الكريمتان من أواخر سورة "ق" تُمثّلان الزاد المعنوي في معركة التكذيب، مَشرقًا نُورانيًّا يتنزل على قلب الداعية، ليُثبّت فؤاده ويشحن روحه في مواجهة جحود البشر وعنادهم. وقد وضع الله فيها "الوصفة الربانيّة" لامتصاص أذى القول بالاستعانة بالذِّكر والصلاة.

السياق والمقاصد (السَّبْك والغاية)، يربط الإمام البقاعي في نظم الدرر بين هذا الختام ومطلع السورة؛ فالسورة بدأت بالقسم بالقرآن العظيم وعجب الكفار من البعث، وظلّ السياق يشتد في تذكيرهم بمصارع القرون وقهر الموت وحقيقة الحشر.

ولما بلغ الإنكار غايته، التفت الخطاب الإلهي إلى النبي ﷺ (والدعاة من بعده) ليقول له: "إن حِجاجهم قد انتهى، وأدلتهم قد دُحضت، فلم يبقَ إلاّ أذاهم القولي، فدَعْهم والْجَأْ إلى ربك".

المقصد العام: صناعة الحصانة النفسية للداعية. فالمقصود ليس العزلة، بل "الخلوة الإيمانية" التي تمدّ الداعية بالطاقة لمواصلة "الخلطة الدعوية".

يرى صاحب (في ظلال القرآن) أنّ هذا التوجيه هو "الزاد" لطريق الدعوة الشاق. فالصبر وحده قد ينفد، ولكنه حين يُربط بالتسبيح والاتصال بالمنبع الفياض، يتحول إلى طمأنينة ورضا، ويصبح ركام القول الباطل واهيًا لا وزن له.

البناء التركيبي واللغوي في الآيتين جاء مشحونًا بالدلالات والظلال النفسية:

الفاء العاطفة (فَاصْبِرْ): هي فاء الفصيحة، الواقعة في جواب شرط مقدر، كأنه قيل: "إذا علمتَ عاقبتهم وعلمتَ أنه لا محيد لهم عن لقائنا، فاصبر".

تعدية الفعل بـ (عَلَى): الصبر هنا عُدِّي بـ "على" (عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ) ليدل على الاستعلاء والتحمل. وفي المقابل، نجد في مواضع أخرى "اصبر لِحكم ربك"، فـ "على" للأذى المشهود، و"اللام" للتسليم والإنقياد.

صيغة المضارع (يَقُولُونَ): تفيد التجدد والاستمرار. أي أن أذاهم متكرر، متجدد، لا ينقطع، وفي المقابل يأتيك الأمر بالتسبيح متجددًا ومتنوعًا ليغلب المحمودُ المذمومَ.

المصدرية في (مَا يَقُولُونَ): "ما" هنا مصدرية أو موصولة، والعدول عن ذكر تفاصيل قولهم (سحر، جنون، كذب) إلى اللفظ العام (مَا يَقُولُونَ) هو من باب التحقير والإعراض عن قبيح قولهم، فلا يستحق تفصيلًا يُدنس به الفضاء القرآني.

وقديماً قال الناظم:

لو كل كلب عوى ألقمته حجراً *** لأصبح الصخر مثقالاً بميزان

الأسرار البلاغية والبيانية: تتألق البلاغة هنا في التناسب البديع بين الأزمنة والأحوال النفسية، وهو ما فصّل فيه ابن القيم في كتبه (مثل بدائع الفوائد والصلاة وأسرارها):

بديع المقابلة والطباق: بين (طُلُوعِ الشَّمْسِ) و(غُرُوبِهَا)، وبين (اللَّيْلِ) و(النهار) المفهوم ضمناً. هذا الاستيعاب الزماني يوحي بمحاصرة الأوقات بالذكر، فلا يدخل الأذى النفسي من أي ثغرة زمنية.

التعبير بـ (بِحَمْدِ رَبِّكَ): لم يقل "سبّح ربك"، بل "سبّح بحمد ربك"؛ والجمع بين التسبيح (تنزيه الله عن النقص) والحمد (إثبات كمال جلاله ونعمته) هو غاية العبودية. وفي إضافة الرب إلى كاف الخطاب (رَبِّكَ) تلطُّف وإيناس خاص بالنبي ﷺ، أي: "ربك الذي يتولاك ويرعاك ولن يتركك".

مجاز "آناء الليل": الآناء هي الساعات واللحظات، ونسبتها إلى الليل وتنكيرها يفيد التعظيم والتبعيض (أي: خُذ لك حظًا من جوف هذا الليل ليلتئم جرح فؤادك).

أوقات التسبيح وعلاقتها بالصلوات: يوجهنا ابن عاشور في التحرير والتنوير إلى أن المقسم الإلهي بالأوقات يطابق مواقيت الصلوات الخمس بعبقرية لغوية: قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ: صلاة الفجر، قَبْلَ غُرُوبِهَا: صلاة العصر (وقيل الظهر والعصر).

(وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ): صلاة العشاءين (المغرب والعشاء) وقيام الليل، (وَأَدْبَارَ السُّجُودِ): الأذكار والنوافل التي تعقب الصلوات المفروضة.

ويشير شيخ الإسلام ابن تيمية إلى ملمح دقيق؛ وهو أن الصلاة اشتملت على التسبيح والحمد، فسميت الصلاة تسبيحاً من باب تسمية الكل بأشرف أجزائه. والسر في اختيار هذين الوقتين (الطلوع الغروب) أن فيهما تحولًا مشهودًا في الكون من النور إلى الظلمة ومن الظلمة إلى النور، وهو أنسب وقت لتأمل عظمة الخالق وتنزيهه.

الرابطة النفسية والدعوية: في ظلال فكر الأستاذ محمد قطب (خاصة في رؤيته للمنهج التربوي الإسلامي)، يظهر الملمح النفسي هنا جليًا:

الداعية بشر، يضيق صدره بالكلمة النابية، والاتهام الباطل، والهمز واللمز. والقرآن هنا لا يطلب من الداعية أن يكون حجرًا لا يشعر، بل يعترف بوجود الأذى القولي (فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ)، ثم يقدم له "العلاج الكيميائي الروحي":

"إن شحنة التسبيح والاتصال بالسجود تُفرغ الشحنات السالبة الناتجة عن تطاول السفهاء، وتملأ قلب الداعية بيقينٍ يجعل الدنيا وما فيها -بما في ذلك أقوال المكذبين- أصغر من ذرة في ملكوت الله."

معنى "وأدبار السجود": انقسم المفسرون فيها، وجاء رأي ابن القيم ليجمع الشتات بذكائه الأصولي والبلاغي:

قيل هي النوافل (كالركعتين بعد المغرب)، وقيل هو التسبيح باليد دبر كل صلاة (33 تسبيحة وتحميدة وتكبيرة).

والقرآن بليغ حمال أوجه يصدق على كليهما؛ فالعبد إذا سجد واقترب من ربه، فإنه حين يرفع رأسه وينقضي سجوده، يظل عبق ذلك السجود ملتصقاً به، فيستمر في تسبيحه ذكراً باللسان أو نفلاً بالبدن، ليدوم الوصل ولا ينقطع.

خلاصة اللوحة البيانية في الآيتين: الآيتان رسمتا خريطة طريق روحية تبدأ بالصبر الخارجي على الخلق، وتنتهي بالسجود الداخلي للخالق، وبينهما تسبح الروح في مدارات الزمان (قبل الطلوع، قبل الغروب، آناء الليل، دبر السجود)، ليتلاشى صوت الباطل (مَا يَقُولُونَ) في بحر التنزيه والحمد الإلهي (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ).

*(اسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ، يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ)

المكان القريب: من إعجاز هذا النداء أنه رغم كونه نداءً كونياً عاماً لجميع الموتى في شرق الأرض وغربها، إلا أن كل نفس تسمعه وكأنه ينادي في أذنها مباشرة مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ. لا يوجد مسافات تحجب الصوت يومئذٍ.

*(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ، يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ)

تُمثّل هاتان الآيتان الكريمتان خاتمة القعقعة الهائلة والمشهد الجليل الذي زلزلت به سورة "ق" أركان العقائد الجاهلية المنكرة للبعث. فبعد أن فصّلت السورة أدلة الخلق، وعرضت مشهد الموت وعالم البرزخ ونفخة الصور، جاءت هاتان الآيتان لتضعا نقطة النهاية الحاسمة بلسان العظمة والكبرياء.

السياق والمقاصد (بنية الختام وجلال الفراغ): يرى الإمام البقاعي في نظم الدرر أن هاتين الآيتين هما "عقد المصير" الذي يربط أول السورة بآخرها؛ فالسورة افتُتحت بتعجب الكفار إنكاراً: (أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ)، فجاءت الخاتمة لتقول بلسان القدرة: (ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ).

المقصد الحاسم: تفكيك مركزية الدنيا في ذهن الإنسان، ونقل الوعي البشري بالكامل إلى مشهد العرصات ليتراءى للسامع كأنه رأي عين.

يصف صاحب (في ظلال القرآن) هذا الختام بأنه "إيقاع حاسم جازم ينهي كل لجاج". الإيقاع هنا سريع، قوي، تتابعي (نحيي، نميت، المصير، تشقق، سراعا)، كأن الزمن يطوى طياً، وكأن المسافة بين الحياة والموت والبعث ليست إلا لمحة خاطفة في علم الله وقدرته.

القراءة اللسانية والنحوية (تأكيد الذات وعلوّ الصياغة): التركيب النحوي في الآيتين مشحون بأدوات القصر، والتوكيد، والتقديم والتأخير، لغرض إبطال الشك بالكلية:

ضمير الفصل والتأكيد المزدوج (إِنَّا نَحْنُ): اجتمع الحرف الموشى بالتوكيد (إنّ) ناظماً لضمير العظمة (نا)، وتلاه ضمير الفصل (نَحْنُ). هذا البناء النحوي يفيد القصر الحقيقي والرد على منكري الإحياء؛ أي: "نحن لا غيرنا، ولا شريك لنا في هذا الفعل الذي تعجز عقولكم عن تصوره".

الجملة الاسمية والخبر الفعلي (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي): جاء المبتدأ اسماً والخبر فعلاً مضارعاً (نُحْيِي وَنُمِيتُ) ليدل على تجدد الإحياء والإماتة واستمرارهما كقانون كوني مشاهد ومضطرد في كل لحظة.

تقديم شبه الجملة (وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ): قدم الجار والمجرور (إلينا) على المبتدأ (المصير) لإفادة الحصر والقصر؛ أي: إلى الله وحده المرجع، لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه، وليس إلى العدم كما يزعم الماديون.

الحال المنصوبة (سِرَاعًا): جمع "سريع"، وهي حال من الضمير المغرور في (عنهم). ومجيئها بصيغة الجمع نكرة يفيد هول الحركة الجماعية المندفعة بقوة القهر الرباني.

الأسرار البلاغية والبيانية (روائع الإيجاز والتصوير): تفجرت في الآيتين بدائع لغوية التقطها ابن القيم وابن عاشور بكثير من التدبر:

صناعة المقابلة التامة: بين (نُحْيِي) و(نُمِيتُ)، ثم المقابلة الإجمالية بين الإماتة في الدنيا والبعث للمصير في الآخرة، وهو طباق يبرز شمولية الهيمنة الإلهية على أطراف الوجود.

مجاز الحذف في (يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ): الفعل أصله (تتشنق)، فُحذفت إحدى التاءين للتخفيف، وهذا الحذف الصوتي يوحي في البلاغة بسرعة وقوع الانشقاق، فالأرض لا تأخذ وقتاً لتتصدع، بل تفتح أحشاءها دفعة واحدة.

الاستعارة المكنية في (عَنْهُمْ): عُدّي الفعل (تشقق) بحرف الجر (عن) ليدل على معنى الخروج والبروز بعد الخفاء؛ فالأرض كانت غلافاً أو رداءً يحيط بهم، فانشق الرداء لتبدو الأجساد نابتة خارجة.

وللتذكير بانشقاق الأرض عن البذور، وهو الحدث الماثل أمام أعينهم ليل نهار، فانشقاقها عن البشر ليس إلاّ مثل ذلك، لذا كان التذييل بالوصف (ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ): الجملة تذييل مقرر لِما قبله. واستخدام اسم الإشارة (ذَٰلِكَ) المخصص للبعيد، هو لبيان بعد المنزلة في العظمة والجلال، لا بعد المسافة.

أسرار "اليسر الإلهي": يوضح ابن تيمية في كلامه عن القدرة الإلهية ملمحاً عقدياً في قوله تعالى: (عَلَيْنَا يَسِيرٌ)؛ فالكفار استبعدوا إعادة العظام وهي رميم، فقاسوا قدرة الخالق على قدرة المخلوق العاجز. فجاء الرد برفع الكلفة بالكلية والتأكيد على أن الخلق والإعادة عند الله سواء في اليسر، بل إن الإعادة في مقاييس العقل البشري أهون، ولكنه سبحانه يعلمهم أن الأمر كله قائم على الإرادة بكلمة "كُن". وزيادة الجار والمجرور (عَلَيْنَا) لبيان أن ما يعجز البشر وتتحير فيه عقولهم، هو عند الله أيسر الأشياء.

تصوير الهيئة النفسية والحركية للمحشورين: يقف ابن عاشور في (التحرير والتنوير) عند كلمة (سِرَاعًا)، فيربط بينها وبين الرعب النفسي والانقياد المطلق؛ فهم لا يملكون التلكؤ أو الالتفات.

ويعقب الأستاذ محمد قطب في سياق حديثه عن الأسلوب التربوي للقرآن:

"إن القرآن هنا لا يكتفي بإخبارك بالحشر كحقيقة ذهنية، بل يجعلك ترى الأرض وهي تتصدع، وتسمع صوت تمزق التربة، وترى ملايين البشر وهم يخرجون يركضون في اتجاه واحد (سراعاً) كأنهم يلبّون نداءً مغناطيسياً لا يملكون منه فكاكاً.. إنها تربية الوجدان بالصورة الحية المشهودة لإيقاظ القلب الغافل."

دلالة "المصير" وقطع العلائق: في عبقرية تقديم (وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ) ملمح وعظي بليغ؛ فالإنسان في الدنيا قد يصير إلى ملك، أو إلى قبيلة تحميه، أو إلى مال ينجيه. أما في ذلك اليوم، فقد قُطعت الغايات والعلائق، وتلاشت خطوط السير، لتلتقي كلها عند نقطة واحدة حتمية إجبارية: (وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ).

خاتمة اللوحة البيانية: إذا كانت الآيتان السابقتان (التي تناولناها سابقاً) قد أمرت بالاستعانة بالتسبيح لتهوين أذى الدنيا، فإن هاتين الآيتين تُريان الداعية والسامع نهاية

هذا الأذى ونهاية أصحابه؛ فالأرض التي يمشون عليها اليوم متبخترين بأقوالهم، ستنشق عنهم غداً ليخرجوا منها مسرعين خاضعين إلى رب العالمين، فيتحقق الوعد الإلهي بالعدل المطلق، وينتهي صخب الدنيا بجلال الخلود.

إعراب ونكتة (سِرَاعًا): يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا.. (سراعاً) حال منصوبة من الضمير المجرور في (عنهم). النكتة النحوية تجسد السرعة المذهلة؛ فبمجرد أن تتشقق الأرض، لا يخرجون ببطء أو بتثاقل كالمستيقظ من النوم، بل يخرجون سراعا يهرعون إلى الداعي، مما يدل على الطاعة التكوينية المطلقة للأمر الإلهي بعد الموت.

جمالية التناسب مع مطلع السورة: يرى البقاعي التلاحم المطلق في أواخر السورة مع أوائلها:

في أول السورة تعجبوا: (أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ)، وفي آخر السورة جاء الرد التكويني: (ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ)، مقابلة بديعة بين "بعيد" في ظنهم المخلوق، و"يسير" في حقيقة القدرة الخالقة.

الكناية والتصوير في (أَدْبَارَ السُّجُودِ): تعبير يضفي على الصلاة هيبة وامتداداً زمانياً ونفسياً؛ فالتسبيح لا ينقطع بانتهاء الصلاة، بل يمتد في "أدبارها" ليبقى المؤمن في حالة شحن روحي مستمر لمواجهة أذى الواقع.

الإشارات المعرفية والعقدية: عقلانية الاستدلال بـ "الخلق الأكبر" على "الخلق الأصغر": يقرر ابن تيمية أن الاستدلال بخلق السماوات والأرض في ستة أيام هو من باب تنبيه العقل البشري؛ فالذي خلق هذا الكون الشاسع المعقد الممتد لا تعجزه إعادة بنية الإنسان الصغيرة الصيرورة. إنه قياس الأولى العقلي الذي يخاطب الفطرة السوية.

*(نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ)، مفهوم قوله تعالى: (وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ) والحرية النفسية للبشر: يقف محمد قطب عند هذه الآية لتأصيل قضية حرية الاعتقاد ومهمة الداعية. الجبار هو الذي يجبر الناس قسراً على فعله وقراره. والقرآن ينفي هذه الصفة عن النبي ﷺ وعن منهجه؛ فالدين لا يُساق إليه الناس بالسياط والضرب، بل بالبيان والتذكير: فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ. أمّا الإجبار فإنّه قادم في الآخرة قسراً (سِرَاعًا)، أما الدنيا فهي دار اختيار وتدبر وتفكر.

المشهد الختامي المذهل: جغرافيا التصدع والنداء: تختم السورة بلقطة صوتية حركية مروعة:

*(ذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ)، الفصل بالقرآن: تنتهي السورة بالكلمة التي بدأت بها. بدأت بـ (ق ۚ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) وتنتهي بـ (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ).

خلاصة التدبر الكلي للسورة: سورة "ق" هي سورة "الخروج من ضيق الغفلة إلى سعة اليقين". بدأت بالحرف الصلب القارع، وطافت بنا في السموات والأرض والنبت، ثم نزلت إلى حبل الوريد وخواطر النفس، وعبرت بنا سكرة الموت ومخاصمة القرناء، ووقفت بنا على شاطئ جهنم المستزيد والجنة المزلفة، لتختم أخيراً بأن هذا الكون كله مآله إلى تصدع وخروج سريع يسمعه الجميع من مكان قريب.

العاصم الوحيد في هذه الرحلة المرعبة هو: قلب حي، أو أذن واعية تلتقي بالقرآن المجيد لتنجو من يوم الوعيد.

المراجع